

دعوة الحق

مجلة شهرية
تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الرباط - المملكة المغربية

عدد خاص
بعيد الشباب المجيد

عيد الشباب
عيد الأمل والطموح والعمل

بسم الله الرحمن الرحيم

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الرباط ـ المملكة المغربية

محرم الحرام 1413هـ
الموافق
يوليوز 1992م

العدد: 291
السنة
الثالثة والثلاثون



أسسها
جلالة المغفور له محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة 1376هـ ـ 1957م

الاشتراكات:
في المملكة المغربية: ...... 70 درهما
في الخارج: 80 درهما
الحساب البريدي: رقم: 485.55 ـ الرباط
compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

الهاتف:
التحرير: 76.23.60
الإدارة والتوزيع: .. 76.36.93
76.27.03
76.27.40
76.08.10

"إنّ عبقريّة شبابنا يجب أن تظهر خاصّة في حسن الاستفادة من فضائل التقدّم المادّيّة والمعنويّة، وفي قدرتها على خلق توازن بين متطلّبات المادّة والرّوح ممّا يجعلها تعيش في هذا القرن، دون أن يطغى التفكير المادّي الصّرف على روحها، فيمسخ فيها كلّ المعاني السّامية التي تصبح الحضارة بدونها في خدمة أغراض لا يستهدفها التقدّم والتّطوّر."

من خطاب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده الذي ألقاه حفظه الله يوم الاحد 2 شعبان 1388هـ، موافق 9 يوليوز 1978م، بمناسبة عيد الشباب المجيد.

إن تنصروا الله ينصركم

بسم الله الرحمن الرحيم

تهنئة

بمناسبة عيد الشباب المجيد، وحلول طلعته الميمونة المباركة في الذكرى الثالثة والستين لميلاد قائد الأمة، وباعث نهضتها وازدهارها، وضامن وحدتها واستقرارها، مولانا أمير المومنين

جلالة الملك الحسن الثاني

نصره الله وأيده وحفظه بالسبع المثاني

يسعد وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وأسرة مجلة "دعوة الحق"، أن ترفع إلى جنابه الشريف ومقامه المنيف، أسمى آيات ولائها وإخلاصها وطاعتها ووفائها، داعية لجلالته بطول العمر ودوام العافية، وأن يجعل هذه الذكرى البهية العزيزة على الشعب المغربي، الملتف حول أهداب عرشه العلوي المجيد، حافلة بالمكرمات والمسرات، ثرية بالمنجزات والمبرات، ومنارة تضيء السبيل أمام الشباب المغربي، لتسنم المعالي، وارتقاء ذرى العز والمجد، والسؤدد والفخار والنجاح.

حفظ الله مولانا الإمام بما حفظ به الذكر الحكيم، وسدد خطواته لخير أمته حتى تصل إلى غاياتها وأهدافها، ووفق مساعيه لصالح الأمة الإسلامية جمعاء حتى تحقق أمانيها الغالية وتطلعاتها الخيرة، وأقر عين جلالته بولي عهده المحبوب صاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد وبصنوه السعيد، صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد وباقي أفراد الأسرة العلوية الشريفة،

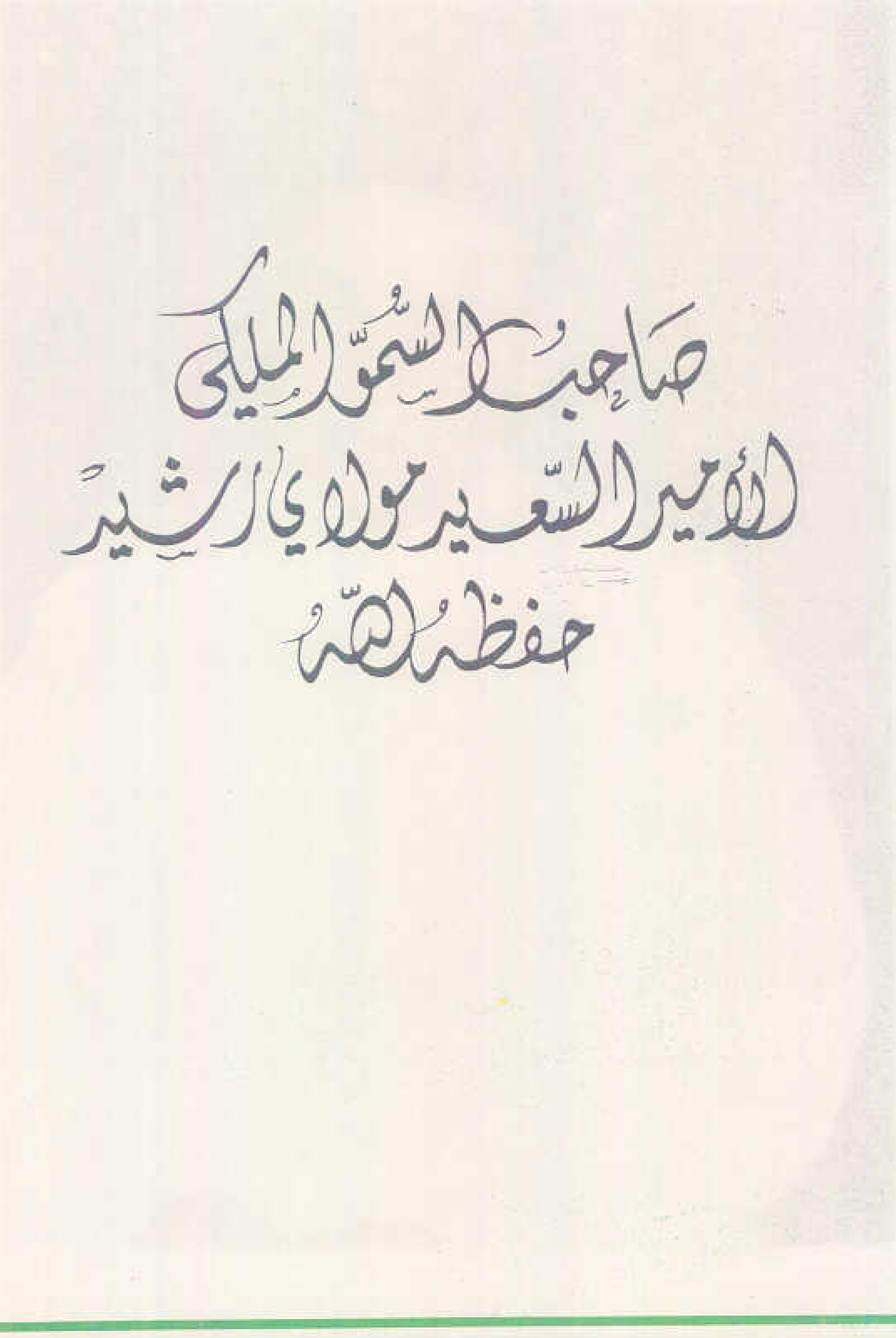
إنه سميع الدعاء.

مولانا أمير المومنين
صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني
نصره الله وأيده

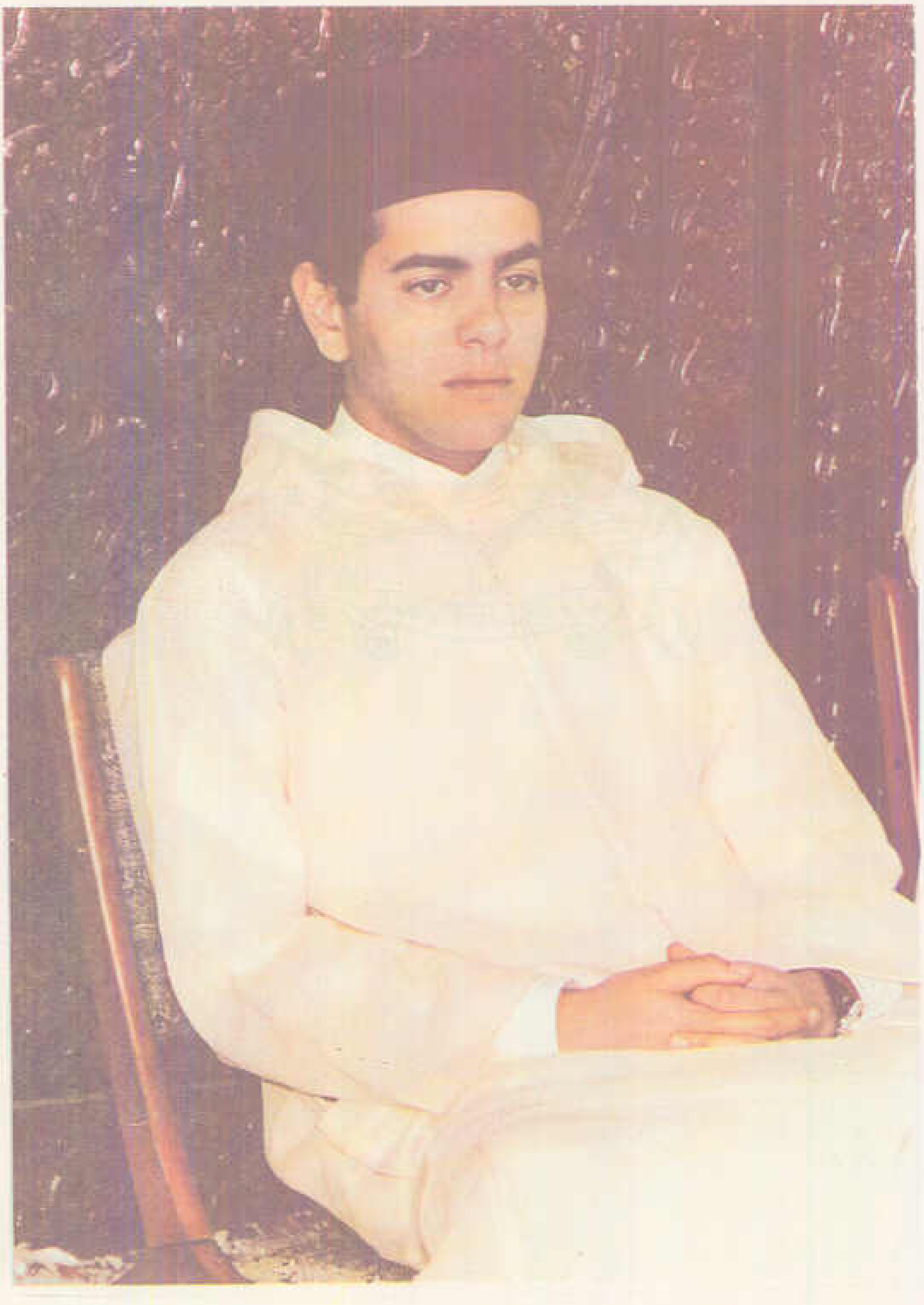


صاحب السمو الملكي ولي العهد
الأمير الجليل سيدي محمد
حفظه الله





صاحب السمو الملكي
الأمير السعيد مولاي رشيد
حفظه الله



إن تنصروا الله ينصركم

افتتاحية العدد:

عيد الشباب

عيد الأمل والطموح والعمل

تعتبر الأعياد الوطنية في أي بلد عربي وإسلامي، مناسبات عزيزة أنشأها الآباء والأجداد، وتركوها للأبناء والأحفاد يستحضرونها، ويستذكرونها في مناسباتها، لما لها من دلالات كبيرة، وأهداف نبيلة، ومرامي بعيدة. فهي تعبر عما لهذا البلد أو ذاك من عراقة في الوجود، وأصالة في التاريخ، وبناء في المجد التليد والطريف، وتأصيل في الحضارة العربية الإسلامية، وامتداد لرسالتها الخالدة، واستمرار لعطآتها الإنسانية.

والمغرب العزيز أحد تلك البلاد وفي مقدمتها، فتاريخه المجيد، وبناؤه المشيد، وصرحه العتيد، حافل بذكريات وطنية عزيزة، وأيام مشهودة خالدة، تشهد بما له من أمجاد ومفاخر، وتذكر بما له من إنجازات ومكارم، سواء في ميدان العمل الإسلامي، والعطاء الفكري والعلمي، أو التشييد الحضاري والنضال البطولي، والجهاد الأكبر المتواصل في سبيل النماء والازدهار والنهوض بالوطن، وإعزاز العروبة والإسلام.

وإن من بين تلك الأعياد الوطنية، وذكرياتها الغالية التي يخلدها المغرب في مناسبتها الكريمة، ويستقبلها في ابتهاج وحبور، وانشراح وسرور، وبهجة كاملة، وفرحة عظيمة، ذكرى عيد الشباب، التي تحل في التاسع من شهر يوليوز من كل سنة، ويخلد بها المغرب من أقصاه إلى أقصاه وفي اعتزاز بالغ، ونشوة عارمة، ذكرى ميلاد أمير المومنين، وحامي حمى الملة والدين جلالة الحسن الثاني، حفظه الله وبارك في حياته، وأدام له الفتح والنصر والعز والتمكين.

هذه الذكرى الثمينة التي يرجع الاحتفال والاحتفاء بها إلى سنوات عديدة منذ فجر الاستقلال، ويتنامى ويتزايد الابتهاج بها مع توالي السنين والأعوام، ويتجدد ثباتها وحبها ورسوخها في نفس وقلب كل مواطن ومواطنة من أبناء هذه الأمة المغربية الوفية، لما تحمله تلك الذكرى في كل سنة من بشائر الخير واليمن والبركة، وأمارات ودلائل الأمل والطموح والمسرة، وترمز إليه من معاني سامية ومقاصد شريفة، تتمثل في تخليد ذلكم الحدث السعيد الذي ابتهج له المغرب قاطبة، وعمت به الفرحة والبشرى يوم ازدانت رحاب القصر الملكي العامر بالرباط، وأشرقت أرجاؤه بطلعة مولد صاحب الجلالة الحسن الثاني المحفوظ بالسبع المثاني، والذي شاء الله أن يكون عضداً أيمن، ووزير صدق لوالده المنعم بكرم الله، جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، وأن يكون بعده وارث سره، وخير خلف لخير سلف في تحمل الإمامة العظمى والأمانة الكبرى، وقيادة سفينة هذا البلد الكريم، ورعايته حق الرعاية في شؤونه الدينية والدنيوية، وجمع كلمته واستكمال وحدته الترابية، وصيانة مكاسبه الوطنية ومقدساته الإسلامية.

كما ترمز هذه الذكرى ـ كباقي الذكريات الوطنية العزيزة ـ إلى تخليد ذلكم الرباط القوي المتين، والتلاحم

التماسك المكين الذي يربط بين العرش العلوي المجيد وشعبه المومن الوفي على توالي الأحقاب وتتابع السنين، والقائم على البيعة الشرعية، والطاعة الدينية التي أمر الله بها واوجبها لأولي الامر في الأمة الإسلامية، وإلى تخليد ذلكم النضال البطولي الطويل الذي خاضه الشعب المغربي بقيادة عرشه العلوي المجيد، ضد المستعمر الغاشم، وما كان فيه وصاحبه من جهاد مستميت، وحماس وصبر منقطع النظير، وتضحية جسيمة بالنفس والنفيس، حتى تحقق النصر بإنقاذ بلد المغرب العزيز من براثن العبودية والاستعمار، وتمتيعه بعزة الحرية وكرامة الاستقلال في ظل العرش العلوي المجيد، ونظامه الملكي الدستوري الحميد.

كما يعتبر عيد الشباب وذكراه الجليلة، وما تهدف إليه وتتوخاه من أهداف وغايات نبيلة، مناسبة مواتية ووقفة سنوية يستعرض المغرب عندها بكافة فئاته وشرائحه الاجتماعية، كل في نطاق اختصاص عمله اليومي ومسؤوليته الوطنية، ما حققه أثناء سنة كاملة من أعمال جليلة ومنجزات عظيمة، وما قطعه من أشواط بعيدة ومراحل هامة لفائدة الأمة المغربية، وشبابها الفتي، في مختلف الميادين والقطاعات العامة، ويفتح آماله وطموحه من جديد على ما يريد القيام به ويعتزم تحقيقه في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في تدبير سليم وتخطيط محكم متين، بما يستجيب للحياة المعاصرة، ويتلاءم معها، ومع متطلباتها المتنامية، وبما يحقق الآمال والطموحات الواعية، التي تراود أبناء المغرب وشبابه المومن، وتملأ أفكاره وتغمر مشاعره الطيبة، ويتجاوب مع تطلعاته الكبيرة الواسعة على مختلف مستوياته العلمية والثقافية وتوجهاته الفكرية والعملية. ويفتح الباب على مصراعيه أمام الشباب المغربي الناهض المتحمس إلى العمل

والبناء، وإلى الإسهام في العمل والعطاء المفيد، وبناء صرح المغرب الجديد، مغرب العهد الحسني الزاهر الذي طفر طفرات جبارة في كافة الميادين، والذي يعمل دوما بكل ما لديه من إمكانات وطاقات ليستقبل القرن الواحد والعشرين بما يتطلبه ويقتضيه من العمل المخلص الجاد المتواصل، وتكاثف الجهود وتظافرها لطي المراحل وتخطي العقبات وتجاوز الصعاب، والبلوغ بهذا الوطن الكريم إلى ما يريد له رائده الملهم صاحب الجلالة الحسن الثاني، من نهوض ومواكبة الركب الحضاري والتقدم العلمي والتقني، والتشبث والاعتزاز بالمقدسات الدينية والوطنية في ظل الملكية الدستورية، وما تعطيه وتضمنه لهذا البلد من عدالة ديمقراطية، وحريات عامة، وحقوق إنسانية.

وهي آمال وطموحات متواصلة في نفس الشباب المغربي المسلم، ومتجددة في فكره المتبصر والمتنور، باعتباره عدة الأمة، ومحط آمالها، ورمز مستقبلها واستمرارها. يأتي الخطاب الملكي السامي في هذه المناسبة الكريمة، وفي غيرها من المناسبات الوطنية الخالدة، ليضع لتحقيقها وبلوغها وإخراجها إلى حيز الواقع الملموس، الأسس المتينة، ويرسم لها الخطى الوثابة الرصينة، ويوضح لها المعالم الجلية والسبل القويمة، والمناهج الحكيمة، والطرق السليمة، ويعطي التوجيهات النيرة والتعليمات الموفقة السديدة، حتى تسير قاطرة الأعمال والحياة الكريمة في هذا البلد الأمين على سكة مستقيمة آمنة، ويتحقق لهذا المغرب الكريم ما يصبو إليه جلالته من نمو واستقرار، وتقدم واطمئنان، ورخاء وازدهار، وبلوغ مدارج الرقي والكمال في كل ميدان ومجال. وكل ما ينهض بالشعب المغربي ويسعده في كل وقت وحال، ويعز الدين والوطن، ويخدم قضايا العروبة والإسلام.

إنه ـ حقا ـ عيد الأمل والتشييد، والطموح والتجديد في عهد باني المغرب الحديث، ورائده الملهم، رمز سيادته وكرامته وضامن وحدته واستقراره، واطمئنانه وازدهاره مبدع المسيرة الخضراء المظفرة، ومحرر الصحراء المغربية، أمير المومنين جلالة الحسن الثاني، أطال الله عمره وخلد في الصالحين ذكره، وأعاد على جلالته أمثال هذه الذكرى العزيزة، متمتعا بموفور الصحة وتمام العافية، والشعب المغربي يرفل في حلل العز والسؤدد، والازدهار والطمأنينة، وأقر الله عين جلالته بولي عهده المحبوب صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه المجيد صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد، وحفظه في كافة أسرته الملكية الشريفة، إنه سميع مجيب، ونعم المولى ونعم النصير. ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾.

دعوة الحق


إن تنصروا الله ينصركم

الرسالة الملكية السامية

التي وجهها مولانا أمير المومنين

جلالة الملك الحسن الثاني

نصره الله وأيده

إلى الحجاج المغاربة الميامين

بمناسبة موسم الحج لعام 1412 هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه

حجاجنا الميامين،

كلما حل موسم الحج وأشرق بالخير واليمن والبركة والأنوار، جرينا على سنن حميد، وتقليد مرعي مجيد، ونهج أصيل سديد، فوجهنا إليكم رسالة نزودكم فيها بتوجيهاتنا ونذكركم فيها بما لنا من بالغ الاهتمام بأمر الحج وشؤونه، وما نريد أن تكونوا عليه من الإيمان والعمل والسلوك.

حجاجنا الميامين،

إننا بوصفنا أميرا للمومنين، وحاميا لحمى الوطن والدين في هذا البلد المسلم الكريم - ما فتئنا نولي عناية خاصة ورعاية دائمة لشؤون الحج والحجاج في كل سنة. ونعطي التوجيهات والتعليمات لحكومتنا قصد تهييء الأسباب والظروف الملائمة، الكفيلة بمساعدة كل من توفرت له الاستطاعة الشرعية لأداء تلك العبادة على الوجه الأفضل والأكمل، وفي أيسر الظروف والأحوال.

.../...

وإنَّه لَمِمَّا يُبهِجُ نَفْسَنا ويُثلِجُ صَدْرَنا ، أنْ نرى عدداً وافراً ومُتزايداً كلَّ سَنةٍ من أبناءِ شعبِنا المغربيِّ المُسلمِ يُبادرون إلى أداءِ تِلْكُم الفريضةِ الإسْلاميَّة ، ويُسارِعون إليها في شوقٍ وتَلَهُّفٍ كبير، بفَضْلِ ما أكْرَمَهُم اللّهُ به من إسلامٍ مُتَمَكِّنٍ راسِخ ، وإيمانٍ قويٍّ ثابِت .

وإنَّ الحجَّ لَعِبادةٌ عظيمةٌ في الإسْلام ، تَقُومُ كَسائرِ العِباداتِ على إخلاصِ النِّيةِ فيها لِلّه في السِّرِّ والعَلَن ، وهُوَ في نفسِ الوقتِ مُلتقًى دينيٌّ ومُؤتَمَرٌ إسلاميٌّ عظيم، يُقبِل عليه المُسلمون من كلِّ حَدبٍ وصَوب ، لِيَشْهَدوا مَنافِعَ لَهُم ويَذْكُروا اسْمَ اللّهِ في أيّامٍ مَعلومات . وهو مُناسبةٌ دِينيَّةٌ كريمَة ، وفُرصةٌ سَنويّةٌ مُتَجَدِّدة ، شَرَعها الإسلامُ وأتاحَها للمسلمين وجَعَلَهم يَجتمعون فيها على صعيدٍ واحد ، ويَلْتَقُون على تَوَجُّهٍ واحدٍ في الإيمانِ بالله وتَوْحيدِه وعبادَتِه ، يَسْتَشْعِرون في نفوسِهم وأعماقِ مَشاعِرِهم الأُخُوَّةَ الدِّينيةَ في أحلى صُوَرِها ، ويُشَخِّصون الوَحْدةَ

../..

الإسلامية في أروع مظاهرها وأسمى معانيها، لا فرق بينهم بجنس أو جهة أو لون، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، تحقيقاً لقول الله تعالى: " وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ".

فاستحضروا الحكمة الربانية، والمقاصد الشرعية التي لأجلها شرع الله فريضة الحج في الإسلام، واعملوا على تمتين روابط التعارف بين إخوانكم المسلمين، الوافدين من جميع بقاع العالم الإسلامي، وعلى توثيق عرى الإخاء والمودة معهم، فإن أمة الإسلام اليوم في أمس الحاجة وأشدها أكثر من أي وقت مضى إلى من يحفظ أخوتها الدينية ويصون عزتها وكرامتها، ويقوي وحدتها الإسلامية.

واحرصوا - معشر الحجاج الميامين على أن تتحلوا بحسن المعاملة والانضباط،

../..

والنِّظامِ ومَزِيته، وكُونوا في مُنتَهى التَّعاوُنِ والانسِجامِ والتَّجاوُبِ والوِئامِ مَعَ البَعثاتِ الإدارِيّة والطِّبية والعِلمِيّة التي نَعمَلُ كلَّ سَنةٍ على تَقوِيَتِها وتَدعيمِها بالوسائِلِ الضّرورِيّةِ لِفائِدتِكم وخِدمَتِكم ورِعايتِكم، ولِلسَّهرِ على تأطيرِكم وصِحَّتِكم وراحتِكم وسَلامَتِكُم، واعملوا بنصائِحِها وإرشاداتِها لكم، وقَدِّروا جُهودَها وخَدماتِها لِصالِحِكُم، وتَجنَّبُوا كلَّ ما يَتنافى مع تِلك العِبادةِ في ذلك المَقام، من سُوءِ المُعامَلة، وذَميمِ السُّلوكِ والأخلاقِ، عَملاً بِقَوْلِ اللهِ تعالى: " الحَجُّ أشْهُرٌ مَعْلُومات فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ في الحَجِّ، ومَا تَفعَلوا مِن خَيرٍ يَعلَمهُ الله، وتَزَوَّدُوا فَإنَّ خَيرَ الزّادِ التَّقْوىٰ ".

واعْلَموا رَعاكُم الله ووفَّقكم أنَّ شقيقَنا خادمَ الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ المَلِكَ فَهْد بنَ عَبْد العزيز يبذُلُ هُوَ وحُكومَتُه الرَّشيدة المُوَفَّقة جُهوداً متواصِلةً مَشكورةً خِدمةً لِضُيوفِ الرَّحمٰن، فكُونوا

.../...

بسلوككم متجاوبين مع هذه الجهود مكملين لهـــا، عاملين على إظهار نتائجها، واغتنموا وجودكم في تلك البقاع المقدسة، واعمروا أوقاتكم فيها بما يرضي الله من أنواع العبادات والطاعات، وتذكروا ما يجب عليكم نحو عاهلكم المتفاني في رعايتكم وخدمتكم، والساهر الأمين على شؤون دينكم ومصالح دنياكم، ونحو بلدكم المغرب الكريم من حق الاستحضار والدعاء، فاسألوا الله لنا دوام النصر والسؤدد، واطراد العز والتمكين، وسداد العون والتوفيق، والتمتع بكامل الصحة وتمام العافية، واسألوه سبحانه أن يقر أعيننا بذريتنا وأنجالنا، وبكافة أفراد أسرتنا وشعبنا، وأن يتغمد بواسع رحمته والدنا المنعم فقيد العروبة والإسلام، جلالة المغفور له محمد الخامس، وأن يسكنه فسيح جناته، وأن يجزيه ويثيبه على ما قام به من خير وعمل صالح، وما قدمه من جهاد وتضحية لصالح الوطن والدين، وخير الإسلام والمسلمين.

../..

وَاسْأَلُوه عَزَّ وجَلَّ لِوَطَنِكم العَزِيز وَبَلَدِكم المغرب الكريم، أَنْ يُديمَ عليه نِعْمَةَ الأمنِ والاستقرار، والهَنَاءِ والرَّخاءِ والاطمئنانِ، وأن يُسبِغَ عليه النِّعَمَ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً، وأن يَصُونَه في وَحْدَتِه الوطنيةِ، ويُحَقِّقَ له كلَّ فَتْحٍ مُبينٍ وَنَصرٍ مَكِين، وأن يُعينَ وَيُوَفِّقَ جميعَ قَادةِ العَربِ والمسلمين لِمَا فيه عِزَّةُ وخيرُ الإسلام، ونهضةُ شُعوبِهم وصَلاحُهم في أُمور الدُّنيا والدِّين، وأَنْ يُهَيِّئَ لهم سُبحانَه الأسبابَ الكفيلةَ بتخليصِ المَسْجِدِ الأقصى المُبارك، أُولَى القِبلَتَيْنِ وثَالِثِ الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، فإنَّه سُبحانه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وبالإجابةِ جَدِيرٌ، وَهُوَ نِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصير.

جَعَلَ اللهُ حَجَّكُم مَبروراً، وسَعْيَكُم مَشكورا، وذَنْبَكم مَغفورا، وَكَتَبَ لكم السَّلامةَ والعافيةَ في الحَلِّ وَالتِّرحالِ والذَّهابِ والإيابِ، وأَعَادَكم إلى أَهْلِكم وبَلَدِكم سَالِمينَ غانِمين، فَائِزِين مُسْتَبْشِرِين، مَسْرُورِينَ فَرِحِين، إنَّه سُبحانَه سَميعٌ مُجيب.

وَالسَّلامُ عَليكم وَرَحْمَةُ الله تعالى وَبركاته.

الكلمة التوجيهية السامية

التي ألقاها

صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني

نصره الله وأيده

بمناسبة افتتاح

المناظرة الوطنية الخامسة للجماعات المحلية

بالقصر الملكي العامر

زوال يوم الثلاثاء 17 شوال 1412هـ موافق 21 أبريل 1992م



الديمقراطية الحقيقية هي الديمقراطية المحلية، وإذا لم تكن توجد هناك ديمقراطية محلية، فلن توجد ديمقراطية وطنية.

علينا قبل كل شئ أن نحترم حقوق الإنسان، وعلينا أن نحترم فوق حقوق الانسان حقوق الجماعات، وعلينا فوق حقوق الجماعات أن نحترم القانون.

الكلمة التوجيهية السامية

التي ألقاها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده بمناسبة افتتاح المناظرة الوطنية الخامسة للجماعات المحلية

ألقى صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده زوال يوم الثلاثاء 17 شوال 1412هـ موافق 21 أبريل 1992م، كلمة توجيهية سامية بمناسبة افتتاح المناظرة الوطنية الخامسة للجماعات المحلية، وذلك برحاب القصر الملكي العامر بالرباط.

وفيما يلي النص الكامل للكلمة التوجيهية السامية:

الحمد لله

والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

حضرات السادة والسيدات :

يطيب لي بادئ ذي بدء، أن أرحب بجميع الوفود الشقيقة والصديقة، التي لبت دعوتنا، وجاءت لتشاركنا في أعمال هذه المناظرة، التي نعتبرها ليس مناظرة مغربية، بل مناظرة الاجتهاد والتنافس في الخير، ومناظرة المختبرات للإبداع والتحرر المادي والمعنوي.

كما نشكر بالخصوص السادة أعضاء الوفود عربا وأوربيين وأفارقة، على الكلمات الطيبة الرقيقة التي فاهوا بها تجاه بلدي وشعبي، وتجاه خديمهما.

حضرات السادة :

اخترنا لهذه المناظرة شعار (التطابق) لأن هذا اللفظ يعني أولا: في تركيبه النحوي والصرفي التفاعل: بمعنى الاستمرار. ثانيا: التفاعل بين هذا وذاك. وثالثا : تفاعل يعني عدم البلاء، بل دوام الجدة. فنحن حتى في حياتنا اليومية

نبحث عن التطابق، سواء ذهبنا بأبنائنا إلى المدرسة الابتدائية أو الثانوية أو إلى الكليات. ويجب علينا وعليهم ـ أي على الآباء والأبناء ـ أن يقع بيننا تطابق في الخطاب، وفي التعامل، وفي الحوار، وفي التفاهم.

إذن، أعتبر أن التطابق هو جعل جميع المقومات التي تتكون منها مجموعة لها واجبات وعليها التزامات، تبحث على أن تطابق مؤهلاتها البشرية، ومؤهلاتها المالية، وإمكاناتها الإدارية، مع ما عليها من واجبات تجاه المواطنين من الناحية التربوية، ومن ناحية التغذية، ومن ناية التكوين، ومن ناحية العمران.

والتطابق له معنى آخر كذلك؛ وهو أن نضع الأمور طبقة فوق طبقة، حسب الأولوية، أو حسب القدسية.

لنبدأ بالأولوية.

فبالنسبة للأولوية، أعتبر شخصيا أن قاعدة كل تطابق هيكلي هي العنصر البشري، فبدون عنصر بشري لا قاعدة نرفع عليها ذلك الهيكل.

ولكن، من هو هذا العنصر البشري؟ فهل هو رجل المغارات؟ لا. وهل هو رجل الجهل؟ لا. وهل هو الرجل غير القابل للتنافس؟ لا. وهل هو الرجل الذي ليس بينه وبين جماعته أية رابطة؟ «نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر» لا. إلا إن ذلك الرجل هو قبل كل شيء رجل مهذب وملطف ومثقف، يعطي ويأخذ، ويوجه النصح ويتلقاه، فبينه وبين جماعته لحمة لا تنفصم، ووثنية لا يغلبها إلا توحيد الله سبحانه وتعالى، ثم فوق ذلك؛ العنصر الأول الذي هو الرجل، هناك واجباته، فيجب عليه أن يعيش مع الآخرين في سلام. وأساس السلام والسلم هو القانون الذي يلزم الجميع، القانون الذي يجب أن يحترم من لدن الجميع، فإذا كانت اليد العاملة وهي العنصر البشري الصالح، وإذا كان النظام الذي يضمن لكل ذي حق حقه في تلك الجماعة، أتى تلك الجماعة، رزقها الطيب الكريم فلاحيا أو معدنيا أو منجميا أو صناعيا، فتصير تترعرع وتنمو بعيدة عن الضوضاء؛ لأن أصحابها أناس مثقفون مهذبون، وبعيدة عن الظلم، لأنها أرادت القانون، وجعلته أسمى تعبير يحكمها. وإذا هي اكتفت بهذه العناصر الثلاثة، واستلهمت منها، أصبحت جماعة فيها التطابق الأفقي، والتطابق المعنوي، والتطابق الذي يجعلها قادرة على أن تكون طرفا محترما من أطراف الجماعات الأخرى التي تكون بدورها البلاد.

لقد سمعت عدة خطباء يتكلمون عن فضل الحسن الثاني في اللامركزية، وإني أقول لهم: لا فضل لي في هذا، لأن المغرب ـ ولله الحمد، وكما أقول دائما ـ بلد له

معالم طريق في ماضيه. وليس بالبعيد، كان للملك الخليفة السلطاني، والخليفة السلطاني كان يمتاز ويتميز بسلطات واسعة، فكان الخليفة السلطاني في تطوان، وفي مراكش، وفي تزنيت، وكان لهم وزراء، وكان لهم كتاب، علما من أجدادنا وأسلافنا ـ طيب الله ثراهم ـ أن البلد لا يمكن أن يحكم من نقطة واحدة، كيفما كانت حيوية الإدارة وكيفما كان حزم الرجال، وكيفما كانت قدرة الموظفين.

إذن، لا فضل لي في هذا الباب، لقد أخذت على نفسي أن أرى في مرآة السائق الذي يرى من الوراء، فرأيت معالم، وكان من بين أعمامي ـ رحمة الله عليهم ـ من كان خليفة سلطانيا. فإذن ترعرعت وأنا متشبع بروح اللامركزية، مؤمنا بها، معتقدا أن الديمقراطية الحقيقية هي الديمقراطية المحلية، وإذا لم تكن هناك ديمقراطية محلية فلن توجد أبدا ديمقراطية وطنية، تهيمن عليها، وتطبعها بطابع الجد والاحترام والالتزام.

حضرات السادة :

لن أطيل عليكم، وهنا أتوجه بالخصوص إلى شعبي العزيز.

قلت لكم في خطاب العرش، نحن على أبواب خوض تجربة دستورية جديدة، متسمة بالصدق والجد، والوطنية، وبالنية الصالحة الطاهرة. وهذه العملية المتمثلة في اعتماد دستور جديد، يأخذ بعين الاعتبار ما تقتضيه الظروف، وما ترنو إليه النفوس عن حق واستحقاق، لابد أن تواكبها عدة عمليات انتخابية.

وحتى تتم هذه العمليات الانتخابية في وقتها اللازم، يجب أن تتخذ إجراءات قانونية وتنظيمية.

وأقول لكم ـ حسب العد العكسي الذي أمامي ـ : إذا نحن أردنا أن يكون البرلمان جاهزا يوم الجمعة الثاني من أكتوبر، وقد سبقته جميع العمليات الانتخابية والتقطيع واللوائح، وما يساير ذلك، يجب علينا أن ننطلق ابتداء من 4 ماي 1992.

إذن، لم تعد تفصلنا عن هذا التاريخ إلا 13 يوما، فالنصوص التي أمام البرلمان يجب أن تخرج إلى الوجود، وإذا لم ننطلق على الأقل بنشر النصوص يوم 4 ماي 1992 فلن نستطيع افتتاح البرلمان في الجمعة الثانية من أكتوبر القادم إن شاء الله.

فلهذا، كما تعلمون وترون ـ شعبي العزيز ـ فإن المدة وجيزة، وفي نفس الوقت مليئة بالعمل.

ما هي مصلحتنا أثناء هذا المسار؟

علينا قبل كل شيء أن نحترم حقوق الإنسان.

وعلينا أن نحترم فوق حقوق الإنسان حقوق الجماعات.

وعلينا فوق حقوق الجماعات أن نحترم القانون.

وعلينا، وأقولها من هنا لجميع الشباب، الذين سيخوضون ولأول مرة المعركة الانتخابية، كفى من أن تبقوا بعيدين عن المسرح السياسي، أو عن الساحة السياسية. أنا لا أهيب بكم أن تنخرطوا في هذا الحزب أو ذاك بعينه، لا. إنما - شبابي العزيز - أريد أن تتجندوا، والتجنيد السياسي هنا عندنا؛ يعني الانخراط في الحزبية؛ تلك الحزبية التي ينص الدستور على أنها يجب أن تكون متعددة.

فكلما كثرت أفواج الشباب في الأحزاب السياسية، وكلما انخرطوا بإيمان فيها، إلا وكثرت فيالق الجيش المدني المغربي لغزو القرن المقبل.

فكما أنه لنا - ولله الحمد - قوات مسلحة ملكية، أبدت وتبدي، وسوف تبدي دائما، وتعطي مثال الشجاعة على الساحة العسكرية، لي اليقين، أن للمغرب قوة مسلحة مدنية؛ تلك القوة التي ستشارك في المجالس البلدية والجهوية والبرلمان، وستشارك في التحليل والتخطيط والبناء والنقاش. أي أريد وجوها جديدة في البرلمان المقبل، أريدها لأنه ليس بيننا وبين القرن المقبل، إلا ثماني سنوات، وثماني سنوات ليست كافية لكي أتعرف على الجيل المقبل، ولكي يتعرف علي الجيل المقبل بعد الله — إذا أراد الله لنا البقاء - إني أريد أن أحاور الذين سيأتون ليخلفوا أحسن سلف، لنسير ولو مدة قصيرة يدا في يد، لا يدفعنا إلا أن نبقى بهذا الوطن، فوق رأسنا وأعناقنا وفي قلبنا دائما، مشرفين مكرمين، جديرين بالإسلام الذي أراد الله أن يطلق علينا؛ وهو المغرب، وبالموقع الاستراتيجي الجغرافي الذي أراد الله أن يضع فيه المغرب.

شعبي العزيز :

سوف أتكلم عن الدستور حينما أقرر أن أعرضه للاستفتاء، ولكن — بين قوسين — أقول: إن الأجل المتعلق بالاستفتاء على الدستور لا يدخل في هذه اليومية العكسية، فالانتخابات التي أتحدث عنها تتعلق بالبرلمان والجماعات المحلية فقط.

وسأحاورك في ما بعد — شعبي العزيز - في موضوع الدستور، وكيف عدلته، وعلى أي أساس عدلته، وما هي الدوافع التي دفعتني لأن أعدله.

ولكن إلى ذلك الحين، أكرر القول لكم:

إنه إذا أردنا أن يكون البرلمان جاهزا يوم الجمعة الثانية من شهر أكتوبر المقبل، يجب أن تنطلق العملية الأولى يوم 4 ماي القادم.

وأقول لكم: إن هذه العمليات خطيرة جدا، لأني أريدها عمليات سليمة ونزيهة،

ولا يمكن أن أجد السلامة والنزاهة في عمليات الانتخابات إلا إذا كانت هناك إرادة جماعية للانصراف للجد والمعقول، وللابتعاد عما هو ثانوي وغير معقول.

فالمعول عليكم أن تكونوا - حضرات السادة — رسلي إلى جميع من ترونهم وتخاطبونهم وتعاشرونهم، علما مني أن الرسالة مرت مباشرة بيني وبين الشعب المغربي.

فلا نجاح للامركزية، ولا مستقبل للامركزية، إذا بقي المغاربة الكفاة بعيدين عن الساحة السياسية.

وأؤكد هنا أن الله لم يخلقنا موظفين فقط، ننخرط في الإدارة، ونأخذ الأجرة، ونذهب إلى البيت فننام.

وفي هذا قال الشاعر في حق شخص، ويقال: إنه أهجى بيت شعر قالته العرب.

«دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي»

إن المغاربة ليسوا من هذا النوع.

إني أهيب بالشباب لينخرط في أي حزب كان. فيد الله مع الجماعة.

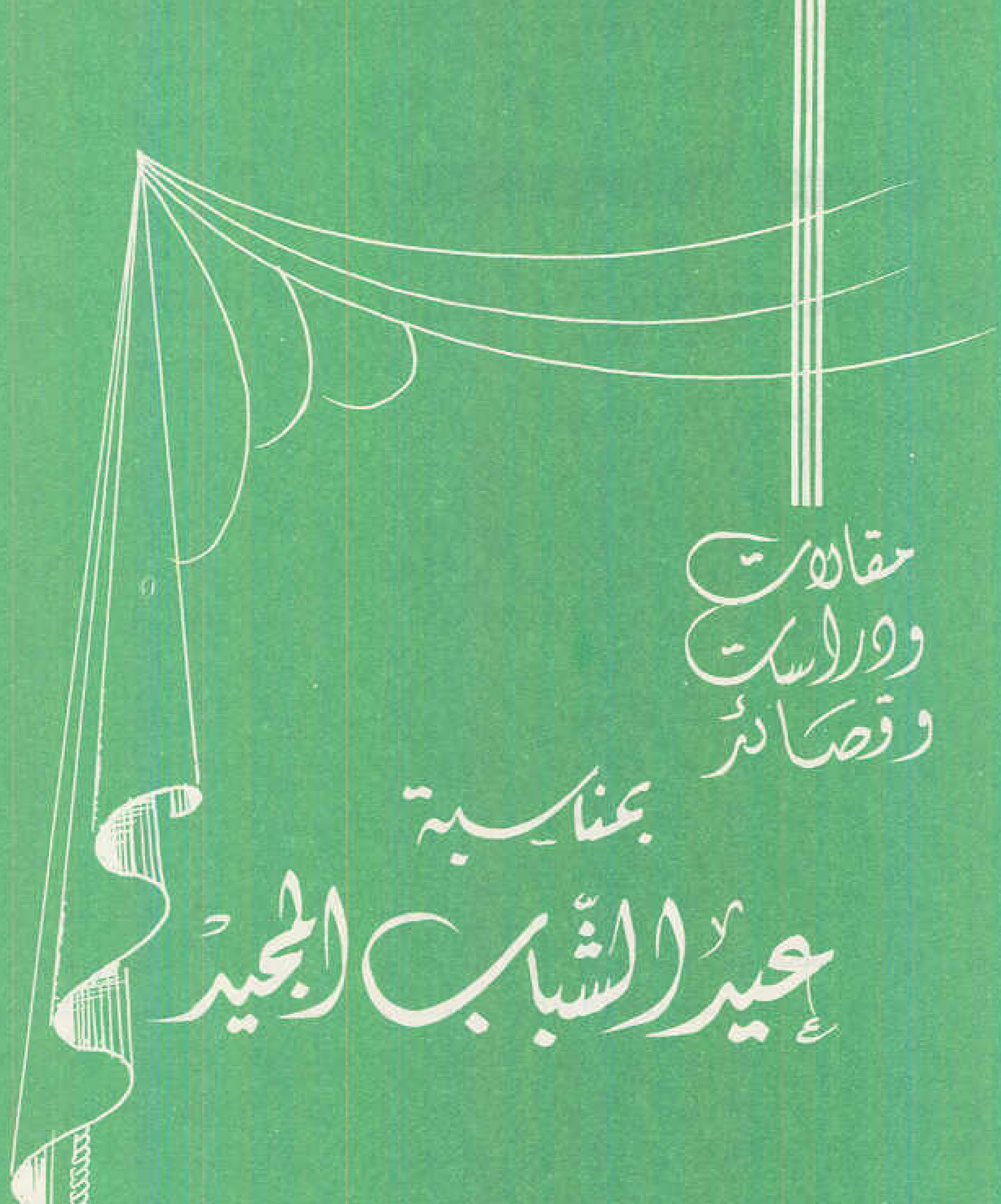
إني أقول لكم: انخرطوا وانخرطوا لأجل بلدكم.

وإذا كان جدي ﷺ يقول: «تناكحوا تناسلوا أباهي بكم بين الأمم»، فإني أقول لكم: انخرطوا، انخرطوا، أباهي بكم وبجيشكم السياسي بين الأمم.

هذه كلمتي لكم شعبي العزيز، وللحاضرين.

ومرة أخرى، أشكر ضيوفنا الذين أثلجوا صدورنا، وأدخلوا البهجة في نفوسنا بحضورهم هنا، إني أشكرهم على كلماتهم الطيبة، وأرجو لهم النجاح أفرادا وجماعات في تجاربهم الخاصة بهم، وأقول لهم: إلى المناظرة المقبلة إن شاء الله.

والسلام عليكم ورحمة الله.



مقالات
ودراسات
وقصائد

بمناسبة

عيد الشباب المجيد

بمناسبة
عيد الشباب
المجيد
لسنة 1992

الشّبابُ

عصَبُ الحياة، وشرايين الأمة، وربيع الحيوية، ومعقد الآمال

للأستاذ الحاج احمد ابن شقرون
رئيس المجلس العلمي الاقليمي بفاس

الشباب عصب الحياة، وشرايين الأمة، وربيع الحيوية، ومعقد الآمال، لأنه قلب مسيراتها في تشخيص الفتوة، وربط حبال الأمجاد، لأنه يلتفت إلى الماضي لأخذ العبرة، وينهض بالحاضر نهوضا مشرقا لبناء المستقبل البسام، وذلك ما كان يهدف إليه مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه وهو ينشئ عيد الشباب لسيد الشباب مولانا الملك المعظم الحسن الثاني أدام الله عزه ونصره، فهو حفظه الله فتوة دائمة، ونضارة قائمة، وعمل حيوي رفيع، وبناء متصل الحلقات بهذه المسيرات الخضرات النَّضِرات في كل حقل ومجال، إذا سمعته يتحدث في موضوع تقول: إنه سيد المختصين فيه، وإذا سمعته يبدع في كتاب تقول: إنه سيد المبدعين، وإذا استمعت إليه في كل سنة من سِنِي حياته الزاخرة، بالمفاخر يُهدي إليك غرره ودرره، ونصائحه ومواقفه إزاء وحدة البلاد ومغربية الصحراء، وغير ذلك تجد نفسك أمام خضم من المعارف والمعاني التي لا يجود بها الحق جل جلاله إلا على من أحبه ورضيه خليفة له في أرضه.

ومن هنا كان معنى عيد الشباب يتبلور في عبقرية مولانا الحسن الثاني، نصره الله، انطلاقا مستمرا من المعاني التي كانت تجيش في صدر مولانا محمد الخامس، رضي الله عنه، وهو يدشن الاحتفال الأول بعيد الشباب في أول عيد للشباب بالمملكة المغربية، فيستمر المغرب شابا متوثبا ناجحا، فيما يقوم به من شؤون دينه ودنياه، لأن الناس على دين ملوكهم،

وملكنا الهمام ملك عظيم، كألف ألف، يجعل المغرب شابا نشيطا، يقتبس نشاطه من سيد البلاد وكعبة القصاد، الذي يعتمد على الله ورسوله، ويمضي في أقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، على مقتضى فتوة الشريعة، وحصافة الإسلام، فتزدهر الشريعة في عهده الحسني الزاهر، ويرفع الإسلام رأسه عاليا، ويتحكم فيما عداه.

وفي القرآن العظيم: ﴿**إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يوتكم خيرا**﴾، فيقول العلماء في تفسير ذلك: إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يناسبكم كمخلوق يوتكم خيرا عظيما يناسبه كخالق عظيم، لأن النكرة إذا أعيدت نكرة فهي غيرها، وقد ذكرت لفظة الخير في هذه الآية الكريمة نكرة مرتين، فصح ما قال العلماء الأجلاء في تفسيرها.

. وهكذا كلما وقف مولانا الحسن الثاني موقف خير كعادته الشريفة، فإن الله تعالى يكافئه وشعبه على ذلك بخير إلاهي عظيم، سابغ شامل مستمر، ينفع الأمة المغربية كلها ببركة الملك المبارك، صاحب المواقف الحسنة، والأعمال الحسنة، والخطوات المتئدة الحسنة، فهو في كرمه كما يقول الحكيم:

هو البحر من أي الجوانب جئته
فلُجَّتُه المعروف والجود ساحِلُه

ولو لم يكن في كفه غيرُ روحه
لجاد بها فليتق اللهَ سائلُه

وهو في علمه وثقافته كما يقول الشاعر:

إجعل جليسك دفترا، في نشره
للميت من حِكَم العلوم نشور

وهو في إحسانه الجَمِّ تشخيص حكمة القائل:

أحسِن إلى الناس تستعبد قلوَبهم
فطالما استعبد الإنسانَ إحسان

وهو في عقله الكبير وخلقه النبوي كما يقول الحكيم:

إذا أكمل الرحمانُ للمرء عقله
فقد كملت أخلاقه ومآربه

وهو سيد الكرماء المحسنين، يكرمهم بخلقه الحسن، وفعله الحسن، وصنيعه الحسن، فيكونون من خدامه الأوفياء فيصدق عليه قول الحكيم:

إذا أنت أكرمتَ الكريم ملكته

وهو في قضية الصحراء المغربية مع القائل:

إذا تضايقَ أمر فانتظر فرجا
فأضْيَقُ الأمر أدناه من الفرج

ورأيه دائما ـ حفظه الله ـ معزز بعزيمته الفولاذية التي لا تتردد، فهو بذلك مع القائل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة
فإن فساد الرأي أن يترددا

ولنواياه الحسنة كتب الله له الفوز والظفر، فهو مع القائل:

ومن يكتب له الفوز يسعد ويسعد

والكُتُبُ دائما في كمه، والحكمة دائما على لسانه بإخلاص، ومن أخلص أربعين صباحا تفجرت ينابيع الحكمة في قلبه وجرت على لسانه وقلمه، لذلك كان دائما مع القائل:

وخيُر جليسٍ في الزمان كتاب

وأفعال مولانا الملك الحسن الثاني نصره الله كريمة، لأنه سليل الكرام، فهو دائما مع القائل:

أفعالُ مَن تِلد الكرامُ كريمة

وهو حفظه الله مع القائل:

الرأي قبلَ شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني

فهو الملك العزيز، حبيب الأمة، ذو الرفق والبر في شؤونه كلها، فهو دائما مع القائل:

الرفق يُمْنٌ والأناة سعادة
فَتَأَنَّ في أمر تُلاقِ نجاحا

ومع القائل:

السيد البَرُّ لا يستجيز أذى

وهو دائما مع القائل:

المال يفنى ويبلى
والذكر أبقى وأجمل

وفي عيد الشباب ننشد مع الأول:

إن الشباب قمة الروابي
روائح الجنة في الشباب

وفي مولانا الحسن الثاني قال القائل:

تزدحم الناس على بابه
والْمَوْرِدُ العَذْبُ كثير الزحام

وهو حفظه الله يمتاز بالأوصاف الثلاثة: العدل، والتدبير، والإحسان. وفي ذلك يقول الحكيم:

ثلاثة يُزْهَى بها السلطان
العدل، والتدبير، والإحسان

يمتاز بقبول توبة الناس، فهو مع القائل:

العفو خير شمائل الأشراف

وعليه يصدق قول القائل:

دعامة العقل تمام الحلم

وعليه، فعيد الشباب، استعراض لمكاسب الشباب منذ فجر التاريخ، تاريخ الإنسانية، ومن يوم عرف البشر طريقه إلى الحياة، منذ قذف به عالم الغيب إلى عالم الشهود، وتفهم رسالته في الوجود.

منذ تلك الحقبة، وعبر تاريخ الأمم والشعوب. تتألق بين فينة وأخرى في سماء الحصافة الفكرية، والحكمة والأناة شخصيات لامعة، يهبها الله سبحانه الإرادة القوية، والعزيمة الوقادة، والتوفيق والقبول والكلمة، التي تنفذ إلى الأعماق، والبيان الذي تتكشف عنه الحقائق،

والبلاغـة التي ترفع كـل غموض وإبهام، فـإذا الجاحدون للحقيقـة معترفـون، وإذا المكابـرون أمام المنطـق مستسلمون، وإذا المحاربون منهزمـون. وليْتَ شِعْري إذا لم تكن شخصيـة اليوم تعني مولانـا الحسن الثاني، فمن تكون إذن يا ترى؟

إنه الذي اكتسب إعجاب العالم باتساع أفـق تفكيره، ووضـاءة تدبيره، إنـه الـذي فجـر طاقـة المغرب حتـى أصبـح يواكـب الركب الحضاري، ويلعب دوره على مسرح الأحداث.

ولحصافة رأيه، واتساع أفقه، وإدراكه، بأن الشبـاب زهرة الحيـاة وعصبها، وأن المجتمع ـ أي مجتمع ـ في احـتـيـاج إلى الشباب لشجاعة الشباب، ولإقدام الشباب، وحماسة الشباب، وعطاء الشباب، وحيوية الشباب، جعـل ـ حفظه اللـه ـ مـن يـوم ميلاد جلالته عيدا للشباب، إيمانا منه بأن الشباب هـو القيمة بأن يكـون في الطليعة، لأنه رمـز العمل والخَـلْق والابتكار، سيما في ظروف تطـورت فيها المنـاهل العلميـة، والقـدرات الفنيـة، والتيكنـولوجـيات المختلفة.

ولهذا، فكلما ذكـر الشباب، ذكـر معـه الأمل والرجاء، والبطولة والإقدام، والاعتزاز بالنفس والإيثار.

بَيْدَ أن الشبـاب لن يبلـغ آمالـه إلا إذا اتصف بالحكمة، والأنـاة والإيمان والوفاء، ولـن يبلـغ الشبـاب آمالـه إلا بـالصـدق والنـزاهـة والمروءة والإخلاص، ولـن يبلـغ آمـاله إلا إذا كـان عمله مصحـوبا بـإرادة قـوية واعيـة، تـدفـع به إلى العمـل البنـاء بحكمة وانتظام.

ولن يبلغ آمالـه إلا إذا أخلص للعقيدة، وآمـن بمكتسبـات العلـم والعقـل، وشعـر بالمسؤوليـة، وتقيد بالنظام، وبنـى علاقته مع الآخرين على مبادئ الفضيلة والأخلاق، وقام بما يفرضه عليه القانون من واجبات مـع ضبـط النفـس والانصيـاع للحقيقـة، واحترام آراء الناس.

ثم لابـد مـن نهج سيـاسـة تشجيـع الشباب على تبني قيمة العمل المنتج، وعلى البـذل والعطـاء للمجتمع، لا عـن طـريـق الشرعية والإرشـاد فحسب، ولكن بطـريق رسـم الخطـط الاقتصـاديـة والتربـويـة، وغيرها، وعن طريق تقديم القدوة والنماذج السلـوكية التـي تـرفـع من شـأن العلـم وتقدره، وتعلم أن شباب المغرب ـ والحمد لله ـ ذكـي بفطـرتـه، معروف بنبـوغـه ومقدرتـه، وعزمه وإرادتـه، معتز بخـدمة وطنه، يتلقى ـ بين الفينة والأخـرى ـ مـا يرسم لـه من خطط قائد نهضتـه، ومبدع مسيرته، جلالة الحسـن الثاني حفظه الله، الـذي يـرعـى الشبـاب، ويحـدب على الشباب، وينصح الشباب، وينير الطريـق للشباب.

وهكذا تمتاز مسيرة الشباب المغربي، في عيد الشباب بالمكارم التي أشرنا إليها، ممثَّلةً في سيد البلاد، ومبدع المسيرات الخُضْر، صانه الله تعالى، وصان أعماله ومنجزاته، وحفظ الإسلام والمسلمين في شخص جلالته الشريفة المنيفة، وحفظ ولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد، والأسرة الملكية الكريمة بما حفظ به الذكر الحكيم.

فاس ـ الحاج أحمد ابن شقرون



عيد الأنوار

للشاعر الدكتور علال الخياري

غنـت بحبـك دولـة الأشعـار ... وسما بفكـرك عـالم الأفكـار !
إني رأيتـك في محافـل عصرنـا ... تختـار عيـش تفـاهـم وحـوار
ورأيـت أنـك أمـة في واحـد ... سمـح السجـايـا سيـد الأبـرار
في مجلس الأمـن الـذي شرفتـه... نـاصرت كـل مطـالـب الأحـرار
بينـت مـا الـوضـع الجديـد بعـالم ... تهوى البيـاض لـه أجـل شعـار
ولبستـه... والكـون ينظـر آيـة ... للعصر في رأي ورسـم مسـار ...
وحفظـت للقـدس الشريـف حقـوقـه ... فشـدا بـآمـال هنـاك كبـار
هـبَّ العـراق إليـك في أحـزانـه ... وجـراحـه ... يـدعـو لفـك حصـار
أطفـالـه في أرضهـم، مـا ذنبهـم..؟ ... مـاذا تعـاني الأم مـن أشرار ...؟
لـو كـان يسـأل عصرنـا عـن رأيـه ... لأجـاب : بـالحسـن العظيـم فخـاري
حسـن المكـارم عبقـري زمـانـه ... شهـم رفيـع القـدر والمقـدار

❊ ❊ ❊

يـا مـن يـرتـب للمشـاكـل حلهـا ... في الموقـف المحفـوف بـالأخطـار
تبنـي البنـاء على أسـاس ثـابـت ... وسـواك يبنـي فـوق جـرف هـار
ويحار غيرك... حين رأيـك واضـح ... فكـأنـه للعين ضـوء نهار
إن السيـاسـة وهـي سر غـامـض ... كشفـت لفكـرك عـالم الأسرار
وأتـت إليـك... وتـوجتـك حكيمهـا ... في كـل بـادرة وأخـذ قـرار

وتحصنت بسديد رأيك سوقها ... مأمونة الإيراد والإصدار
تهوى شبابك رافلا في جنة ... بين الورود وصادح الأطيار
وسواك يهوى أن يعيش مكدرا ... صفو الشعوب وموقدا للنار
تحيى على أسمى المبادىء ثابتا ... في عالم متغير محتار
أصبحت رمزا للألى بشعوبهم ... بروا ببرور الصبر والإيثار
ولك المواهب.. كل واحدة لها ... جو من الأنوار في الأنوار
من ذاكر يوم المغارب، من رأى ... مراكش الحمراء في استبشار
ما المغرب العربي إلا وحدة ... في الدين والفصحى وحسن جوار

* * *

أمل العروبة... أنت ضامن وحدة ... هي للغد المأمول خير مسار
من دون وحدتنا تسير شؤوننا ... من موج تيار إلى تيار
كيف السبيل إلى غد... في عالم ... متكتل، شرس القوى، جبار ؟
بالأمس... كم كانت شعوب دوننا ... واليوم ذات قوى وذات يسار

* * *

من روح هذا العصر صغت مسيرة ... ما مثلها في سالف الأعصار
نبتت بأطلسنا الأسود أبية ... من مثلنا في العزم والإصرار ؟
نهلوا من القرآن صفو أخوة ... فكأنهم من فتية الأنصار

* * *

أنا ما مدحتك بالكلام، وإنما ... بالحب في سري وفي إجهاري
بالحب في وطني الذي أحللته ... أوج السها ومنازل الأقمار
خلدت باسمك مأثرات تزدهي ... وتسير من عمر إلى أعمار
فاسلم لنا... تزجي المواكب للمنى ... واقبل تحايا الحب والإكبار

الرباط ـ علال الخياري

جهاد الملوك العلويين

ومسيراتهم التنموية والتجديدية

للأستاذ الحسين وجاج
رئيس المجلس العلمي الإقليمي بتزنيت

من المشهور في تاريخ المغرب القديم والحديث، أن إخلاص الشعب للعرش وتشبثه بأذياله، وإخلاص العرش للشعب وتفانيه في مصالحه، هو سر مجد الأمة المغربية وعظمتها، وقد أراد الله لها الخير والعزة والشرف، فأكرمها بهؤلاء الملوك الأماجد، وجعل أيامهم كلها أيام عز ورخاء وبناء وجهاد وتلاحم ووفاء.

ويدل على هذا ما ذكره المؤرخون(1) من أن المولى الشريف بن علي مر ذات يوم وهو صبي على الإمام المولى أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني بسجلماسة، فسأل عنه، إذ لم يكن يعرف قبل ذلك، فقيل له: هو ابن المولى علي الشريف، ففرح أبو محمد، ومسح على ظهره، وقال: ماذا يخرج من هذا الظهر من الملوك والسلاطين؟ فعلم الناس أن ذلك كائن لا محالة، لما يعلمون من صحة كشف أبي محمد وصدق فراسته.

ومن هذه القصة يظهر أن الملوك العلويين كانوا هبة من الله لهذا الوطن العزيز، والحافل بالمكرمات، هيأهم الله بقدرته، ونصرهم بحوله وقوته، وعزز بهم دينه وشريعته، وجعلهم إحدى العلامات الدالة على أن المغاربة سيبقون دائما معززين مكرمين في طريق الله، لايضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله.

فهم - كما هو المجرب في تاريخهم - مقدرون لمدلول البيعة، جادون في حماية الدين، وخدمة الدنيا والملة، باذلون كل

1) النزهة : لليفرني.

الجهود لتركيز الفضيلة بين أفراد الأمة، شاكرون الله بما ينجزونه من منجزات تخدم عيال الله، وتنشر العلم والفضل بين عباد الله، جادون على أن يبقى المغرب دائما شريفا وعزيزا شامخ العرنين بين الناس أجمعين.

وكما هو المعروف منذ بدايتهم فإن مولاي رشيد ـ رحمه الله ـ كان مهتما بتأسيس الدولة على أسس من العلم إلى حد بعيد، فهو الذي أنشأ عددا من المدارس، وأحدث نزهة الطلبة الربيعية، والتي يقيمونها سنويا على ضفاف وادي الجواهر بمدينة فاس، تشجيعا للعلم والعرفان، وإذكاء لروح المنافسة بين الشبان.

والملوك العلويون ـ حسبما يذكر التاريخ ـ لايهتمون في جهادهم ومسيراتهم بالمغرب والمغاربة وحدهم، بل يهتمون بكافة العرب وسائر أقطار المسلمين، وخاصة بلدان المغرب العربي، التي تتعرض من حين لآخر لأخطار الأجانب، وهجمات المستعمرين.

ويدل على هذا ما قام به المولى إسماعيل ـ رحمه الله ـ في وقت انشغاله بتحرير المدن المغربية، وتركيز أمر الدولة فيها، من توجه لتحرير مدينة وهران من السيطرة الإسبانية الدائمة عليها أكثر من قرنين اثنين، عندما استصرخ به عبد الرحمان الجامعي الفاسي، الذي يقول في بعض رسائله إليه: إن الكثير من أهل هذا الزمان يرى أن هذا الفتح ـ يعني فتح مدينة وهران ـ إنما يكون على يد هذا العاهل المغربي، لما عاينوه من حرصه أول دولته على إخلاء الثغور من الكافرين، وتعميرها بالمسلمين.

ويذكر المؤرخون أنه لما فتح المولى إسماعيل مدينة العرائش، كان من بين المهنئين له بهذه المناسبة العالم المغربي عبد الواحد البوعناني الفاسي، وقد ضمن تهنئته الشعرية التذكير بتحرير وهران في أربعة أبيات يقول فيها:

ووهران تنادي كل يوم
متى يأتي الإمام متى يزور
متى يأتي ويفتحها سريعا
ويلحق أهلها منه ثبور

وقد أبى مولاي إسماعيل ـ رحمه الله ـ إلا أن يلبي النداء، ويجمع الجيوش، ويعد المعدات، ويقصد وهران لحرب الإسبان بها، وقد نزل في سنة (اثنتي عشرة ومائة وألف) ببسيط سيف من مرج سيرات، فالتفت عليه قبائل الحشم وبني عامر من زغبة، وقبيلة هبرة وسويد، وتيامنوا بطلعته، فجعل يشن الغارات على وهران بجيوشه وبمن انضاف إليه من هذه القبائل، ولما أعياه أمرها، وطال تردد الجيش عليها، وقف عليها،

وتعجب من حصانتها، وقال: «هذه أفعى تحت صخرة، تضر غيرها ولا يقدر عليها أحد». ثم أقلع عنها وبنى رباطا قرب سيف يعرف بحرش مولاي إسماعيل، وترك بها طائفة من العبيد، لا زال عقبهم بتلك الناحية يعرفون بالعبيد الغرابة، وترك طائفة أخرى من الجيش ببسيط أغبال قرب وهران يعرفون بالبحايثية.

ويحدثنا التاريخ، بأن الملك العثماني رفع كتابا إلى مولاي إسماعيل يقول فيه: وألقيت عليك محبة مني عن طيب خاطر وخبر متواتر، لأنك صاحب الكرسي الشريف، وشرفكم أصيل من جد إلى جد إلى النبي ﷺ وشرف ومجد، وقد جعل الله بينكم مودة ورحمة، وأنتم أصحاب العقل والمجد والكرامة السرمدية، وأهل الشريعة المحمدية، يجب علينا معرفة قدركم، والتنويه بمجدكم وفخركم، كيف تخفانا طهارتكم وكرامتكم والله تعالى يقول: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾**.

وقد قام المولى سليمان بعمل شجاع آخر في فك الحصار الأمريكي عن مدينة طرابلس الليبية، فقد ذكر المؤرخون أنه في عام 1217هـ الموافق لسنة 1803م، وجهت أمريكا أسطولها الحربي لحصار طرابلس، فهب المغرب لنصرة القطر الشقيق، وسار أسطوله يسابق الرياح لخفته، وجمعه بين الشراع والمجاذف. وما كاد الأسطول الأمريكي يصل إلى طرابلس حتى اعترضه الأسطول المغربي فقطعه عنها، ولم تمض إلا مدة يسيرة حتى صيره على وجه الماء، ولما بلغ هذا مسامع أمريكا بعثت بِـعَـبَّـارَةٍ أخرى إلى طرابلس، ولكن الأسطول المغربي لقيها مرة ثانية فبددها.(2)

وقد برز هذا الاهتمام السليماني مرة أخرى حينما غار الأسطول الإنجليزي على الجزائر عام 1229هـ، إذ سارع الأمير إبراهيم بن السلطان مولاي سليمان، وبعث رسالة مواساة عن أمر والده إلى باشا القطر الشقيق أبي حفص عمر، معربا له عن مساندة المغرب.

وبعد انتصار الجزائر على الأسطول، بعث نفس الباشا لسلطان المغرب بكتاب في الموضوع، شاكرا له مساندته، مما جعل السلطان نفسه يجيبه بقصيدة من نظم الشاعر المغربي الشيخ حمدون ابن الحاج السلمي الفاسي، مع تذييلها بتهنئة نثرية، يظهر أنها من وضع السلطان نفسه، وقد اشتملت على تمجيد جهاد الجزائريين، وأبرزت مظاهر اهتمام المغاربة، وعلى

2) جريدة المغرب: العدد الممتاز ـ ص 346، من مقال لمحمد بن علي الدكالي.

رأسهم ملكهم بحادث الاعتداء على الأمة الجزائرية.(3)

ويذكر التاريخ أن هناك رسالة صادرة عن السلطان المولى سليمان إلى أمير ليبيا يوسف باشا يقول فيها: «لا نالوا جهدا في صلة نصركم، وإعزاز أمركم، وإسعاف قصدكم». ثم تبرز الرسالة الغاية من قطع هذا الوعد، وتقول: «وقصدنا بهذا أن يعلم اعتناؤنا بأمركم، وعملنا على نصركم، واهتمامنا بشأنكم، ليقصر شأو عدوانها، ويتضاءل طائر طغيانها»،(4) وفيها يقول أيضا: «وهيهات أن ندع إعانتكم، أو نبدي في ذلك عذرا، ولا سيما وقد قطعتم من المهامه الفيح نجدا وعورا، ومن البحار الطافية لجاجا خضرا، إذ الحر للحر معوان، والمومن للمومن كالبنيان، لا زالت أعلامكم منشورة، وسيوفكم على أعدائكم مقصورة، ولا برحتم في هناء وسرور، مطمئنين في حاضرتكم الشاهقة القصور، آمنين في ظل راحتكم من الأكدار والشرور».

أما جهاد المولى محمد بن عبد الله العلوي لصالح الإسلام والمسلمين، فأمر سارت به الركبان، وقال المؤرخون: إنه كان عالي الهمة، يحب الفخر، ويركب سنامه، ويخاطب ملوك الترك مخاطبة الأكفاء، ويخاطبونه السادة، ويمدهم بالأموال والهدايا، حتى علا صيته عندهم، وحسبوه أكثر منهم مالا ورجالا، وأما ما أنفقه من الأموال في فكاك أسرى المسلمين، فأكثر من ذلك كله، حتى لم يبق ببلاد الكفر أسير لا من المغرب ولا من المشرق، وقد وصلوا في سنة (ألف ومائتين) ثمانية وأربعين ألف أسير وزيادة.

وقد بذل جهودا كبيرة في استصلاح الحالة العلمية، واستنهاض همم العلماء، وأمرهم بالرجوع إلى الأمهات، والإقبال على كتاب الله وسنة رسوله، اللذين هما المرجع الأول والأخير لأحكام الشريعة الشاملة لمنافع الحياة.

أما المولى الحسن الأول، فهو مثل من سبقه في الجهاد والمسيرات، وهو كما يقولون: عرشه فوق فرسه، مجاهدا ومنظما ومجددا، فهو كما قال فيه أبو عبد الله أكنسوس: «لم تشغله شؤون الخلافة المترادفة آناء الليل وأطراف النهار، ولاما في قصوره السلطانية من الحدائق والأزهار عن وظائف الدين وأسباب اليقين».

فعهده كله جهاد ومسيرات واستشارات لحماية الشخصية المغربية، وعلاج شؤون المغرب العلاج المفيد والمناسب.

فقد دعا ـ رحمه الله ـ في نهاية القرن الثالث عشر الهجري إلى البعث والتجديد،

---

3) دعوة الحق: العدد الثالث ـ السنة الثالثة عشرة (ذو الحجة 1380هـ).

4) دعوة الحق: العدد الرابع ـ السنة الثانية عشرة (ص 46) ذ. محمد المنوني.

للدعوة الإسلامية وعزائم الدين وأحكام الشريعة المطهرة، والتمسك بالكتاب والسنة، والعض عليها بالنواجذ، والتحذير من البدع والمحدثات، والنواهي والمنكرات، انطلاقا من حديث التجديد الذي بشر النبي ﷺ بوقوعه كلما ضعف أمر الدين، وانتكث حبله، وزاغ أتباعه عن الطريق، وذلك في حديثه المشهور: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها».

فقد اعتبرت رسالته التجديدية مَعْلَماً من معالم الطريق الصحيح، واتخذت منارا اهتدى به كل من أراد الإصلاح والبعث الحقيقي للإسلام، لأنها كلها مستمدة من المنبع الصافي الذي لم تعكره فلسفة مادية، ولا إيديولوجية ملحدة، وإنما هو الوحي والتنزيل والكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والسنة المبينة له المروية عن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.

وقد بذل جهدا كبيرا في سبيل وتطهير الثغور من الدخلاء، واستطاع أن يلهي الدول الاستعمارية في مؤتمر الجزيرة الخضراء، ويحقق رغبته في العمل لإصلاح الأوضاع الاقتصادية بالمغرب، دون المس بسيادته وأنظمته كما استطاع أن يوطد النظام في أقاليم المملكة، وخاصة في أقاليم الصحراء المغربية الشاسعة الأطراف.

وقد اقتدى به أولاده وأحفاده من بعده، في المحافظة على الوطن والدفاع عنه بمختلف الوسائل رغم الجشع الاستعماري، وضخامة المناورات التي تحاك للنيل من سيادة المغرب، وحرمانه من حريته واستقلاله.

وشاء الله أن يعيد التاريخ نفسه، وأن تمكن الأقدار الإلاهية مولانا محمد الخامس من تحمل المسؤولية العظمى في قيادة المغرب نحو العزة والكرامة، اقتداء بآبائه وأجداده، الذين أخلصوا دينهم لله، ونظموا مسيراتهم التنموية والتجديدية، وحافظوا على وحدة الوطن واستقلاله، وبذلوا النفس والنفيس في سبيل تقويته وإعلاء شأن سكانه. فمنذ اعتلائه على العرش، عقد العزم على النهوض بمستوى شعبه، معبرا عن ذلك في الخطاب الذي قال فيه:

«إن الشعب المغربي ينتظر منا مجهودا مستمرا، لا من أجل تنمية سعادته المادية وحدها، ولكن لنكفل له أيضا الانتفاع من تطور فكري يكون متلائما مع احترام عقيدته، ويستمد منه الوسائل التي تجعله يرتقي درجة عليا في الحضارة بأكثر ما يمكن من السرعة، وهكذا بقي ـ رحمه الله ـ في الصراع مع الإدارة الاستعمارية إلى أن ضحى بعرشه وراحة عائلته في سبيل حرية المغرب واستقلاله، ضاربا

الرقم القياسي في الوفاء لهذا الشعب الذي بادله الوفاء بالوفاء، وتمرد على المستعمرين، وفرض عليهم عودة ملكه الشرعي معززا مكرما، ومبشرا بالحرية والاستقلال، وتاليا قول الله عز وجل: **﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن، إن ربنا لغفور شكور﴾**.

ولقد يسر الله له كل شيء في مسيراته، وحقق له لحسن طالعه كل متمنياته، وزود ولي عهده بوصية خالدة، عبر فيها عن اهتماماته بمستقبل شعبه ووطنه، ووضح له فيها الاقتداء بجده المولى الحسن في مسيراته، وكون منه رجل الدولة المناسب والملائم، والقادر على تحقيق تطلعات شعبه من بعده.

ذلكم هو الحسن الثاني، الذي كان رفيق والده في جهاده، وتعلم الحكمة السياسية والحكمة الوطنية في مدرسة والده محمد الخامس، الذي أدى واجبه خير أداء، والتحق بالرفيق الأعلى راضيا مرضيا، وتاركا المسؤولية في يد أمينة خبر صنعها في السراء والضراء، وتعرف على إيمانها بمقومات هذا الوطن، وقدرتها على السير الحكيم لتحقيق الديمقراطية والعدالة، ورفع مستوى المواطنين في مختلف الميادين.

لقد أبى الخلف الصالح إلا أن يقتدي بالسلف الصالح، وينظم المسيرات التنموية والتجديدية، ويجعل عرشه على ظهر جواده، مثلما كان عليه جده المولى الحسن الأول رحمه الله، ويتفقد شؤون الوطن باستمرار، ويعمل المستحيل في سبيل أصالته ووحدته، وتركيز دولته وتنمية موارده، برورا من جلالته بعهد الله، وإنجازا لما وعد به أمام محمد الخامس رحمه الله، من خدمة وطنه، وإعلاء كلمته، وجعله في المستوى الذي يليق به بين الناس أجمعين.

لقد عرف ـ أعزه الله ـ أن بمسيرات القرآن والإيمان تتحقق الأماني، وتدرك المتطلبات، وأن بالعمل اليومي تتفاضل الأمم، وتنتصر الشعوب، لذلك تراه يتخذ المبادرات، وينظم المسيرات، تنفيذا لكتاب الله عز وجل، واقتداء بسنة رسول الله ﷺ، التي تعتبر أعظم مدرسة خرجت الأفذاذ من المومنين، وزودت الأمة الإسلامية بأبطال ملتزمين، وحببت إلى الناس الإقبال على الله، والبعد عن الهوى والشيطان.

وكيف لا وهو الملك الغيور، الذي تخرج من مدرسة محمد الخامس الأصيلة قبل أن يتخرج من مدرسته العصرية، فاستطاع بذلك أن يلقح العلوم الأصيلة التي أخذها من أعلام كبار، وشيوخ أفذاذ، بعلوم عصرية جعلت منه رجل القرن العشرين.

إنه الملك الذي وضح برنامج عمله في أول خطاب له بصفته رئيس الدولة المغربية المسلمة وملكها يوم 3 مارس 1961، حين قال:

«وإني أعاهد الله وأعاهدكم على أن اضطلع بمسؤولياتي، وأؤدي واجبي الوطني طبق مبادىء الإسلام وقيمه السامية، وتقاليدنا القومية العريقة، ومقتضيات مصلحة الوطن العليا».

وهو الذي قال أيضا بمناسبة الاحتفال بليلة القدر المباركة لرمضان 1387هـ، والتي صادفت ذكرى مرور أربعة عشرة قرنا على نزول القرآن، موجها كلامه ـ أعزه الله ـ إلى وفود علماء العالم الإسلامي:

«اجتهادنا هو العمل اليومي على أن يصير كتاب الله عملة خلقية وإنسانية وقانونية، ليتعامل بها جميع بني الإنسان، مسلمين كانوا أو عربا... إننا قد جربنا عدة مسالك، ومنها المسالك السياسية، فلم تمكنا إلى يومنا هذا من أي حل، علينا أن نجرب كوسيلة لتوحيد الصفوف، واتحاد الجهود، وسيلة سماوية مقدسة، ألا وهي حبل الله المتين».

وقال أيضا في الذكرى الأولى لجلوسه على العرش:

«يجب أن تكون شخصيتنا الإسلامية بارزة في جميع مظاهر النهضة، وأن تاريخ المغرب نفسه ليشهد بأن أزهى عصورنا هي العصور التي كان التمسك بالإسلام فيها من أبرز المميزات، وإن كل حركة تحريرية إصلاحية إنما قامت على أسس القيم الروحية، ففي إطار ديننا الإسلامي السمح، سنصوغ كل عمل وكل إصلاح، لأن المكاسب الدنيوية ليست غاية في حد ذاتها، لأنها مكاسب محدودة، أما المكاسب الروحية فليست لها حدود، لأنها هي الوجود، ولأنها هي التي تمكن الفرد من حسن التصرف في مكاسبه الدنيوية، وتكيف تصرفه بالخصال الحميدة، حتى لاتكون في المجتمع شحناء ولا بغضاء ولا تفرقة.

والحسن الثاني في جهاده ومسيراته، إنما يقتفي آثار أجداده، وينفذ وصايا أبيه محمد الخامس رحمه الله، ذلك المجاهد المعبر عن إيمانه بمنهاج الله في القرآن، للسيد كامل الشريف نائب أمين عام المؤتمر الإسلامي في القدس الشريف حين قال له:

«لقد كان الإسلام هو غذاءنا الروحي في سنوات الكفاح الطويلة، ولولاه ما صمدنا في وجه الاستعمار، وهذا الدرس عملا لا قولا، فلا حياة ولا مستقبل لنا إلا بالإسلام، وإن انتصارنا على الاستعمار، كان انتصار القرآن على خصومه، ولولا هذا الكتاب الذي جمع قلوب مواطنينا على

اختلاف عناصرهم وقومياتهم لانتهت أمة المغرب والشمال الإفريقي من زمن طويل، ولأصبحت هذه الديار قطعة أوربية حقيقة لا مجازا، حقا لقد كان القرآن رائدنا في معركة التحرير، وسيظل كذلك بالنسبة لنا في معركة الوحدة والبناء».

والحسن الثاني الذي يعمل ليل نهار في سبيل بناء المغرب العربي، وتحقيق الوحدة الوطنية، إنما تحمل مسؤولية تنفيذ ما قرر والده طيب الله ثراه حين قال في خطاب العرش لسنة 1958 ما يلي:

«ولم نفتأ نتضامن التضامن التام مع الشعب الجزائري، ونعمل لتحقيق استقلاله، ذلك الاستقلال الذي هو عنصر أساسي لتشييد وحدة المغرب العربي».

ولهذا، فجهاد الحسن الثاني موروث، ومسيراته أصيلة وهادفة، فهو سليل محمد الخامس، الذي يعتبر المحرر الأكبر حقا وصدقا على الصعيد العالمي، مما هيأه الآن يحرز مع الأربعة الكبار وسام المحرر العالمي، ويحلى صدره في محفل رهيب بباريز، تحضره الديبلوماسية الدولية، وتنوه به الصحافة العالمية على اختلاف مذاهبها، ومشاربها، وتعدد آراء رجالاتها، مبرزة جهاده العظيم لنصرة المبادىء الديمقراطية، ومحاربة النازية والفاشية، وكل قوى الشر والطغيان، وتشبعه بروح التحرر الديني والفكري، وحبه لبني البشر أينما كانوا، وحيثما حلوا، دون تحيز إلى فريق أو فريق إلا بدافع الحق والإخلاص للمبادىء الإنسانية، الأمر الذي جعل الحرية تعيش معه، ويعيش معها طوال عهده المليء بالمآثر والمزايا، منفردا ومميزا من بين رؤساء الدول والشعوب.

من هذه المدرسة تخرج مولانا الحسن الثاني الملك الرائد، والذائد، والموحد، والمنقذ، هذا الملك الذي جعل المغرب كله ورش عمل، وطبعه بطابع الحركة والنماء والتطور، حتى عرف بأنه مغرب المسيرات، وما أكثر مسيرات جلالته الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتحريرية وغيرها، فبفضلها أيقظ الوعي الديني والوطني بين المواطنين في الداخل، كما أيقظه بين كافة العرب وسائر المسلمين في الخارج.

وقد وضع في أعلى قائمة اهتماماته ـ أعزه الله ـ الحفاظ على الشخصية المغربية وحمايتها من المسخ، موضحا ذلك بقوله:

«المغرب معرض لخطر واحد، هو أن تمسخ شخصيته، المغرب لايخشى الفقر، لأن الله سبحانه أعطاه الخيرات، والمغرب لايخشى السيطرة، لأن الله خلق فينا والحمد لله روح الكفاح، وروح الدفاع، وعدم الرضا بأي سيطرة كيفما كانت، ولكني أخشى المسخ لشخصية المغرب

أكثر من كل شيء، وشخصية المغرب أمانة في عنق كل واحد منا، ولكنها أمانة لا يجوز تضييعها أبدا».

وللحفاظ على هذه الشخصية أنجز الكثير من المؤسسات التعليمية والثقافية، ومكنها من الوسائل المادية والبشرية اللازمة لها، ومن بين هذه المؤسسات القرويين وجامعتها العتيدة، الناطقة بعظمة المغرب، وتراثه الثقافي والعلمي، والكليات التابعة لها، في الشريعة واللغة العربية وأصول الدين، وقد توجها أعزه الله بدار الحديث الحسنية لتجديد واستكمال الدراسات الإسلامية العليا، وعمم رسالتها بالكراسي العلمية في مختلف المدن المغربية، وركزها بالمجالس العلمية في مختلف العمالات لتنوير الأفكار، وحماية الأخلاق الإسلامية من العبث والتلوث والتشويه والتدمير.

تزنيت ـ الحسين وكاك



عيد الشباب

نِبراس يُقتدى وسِراج يُهتدى ومِثال يُحتذى

للدكتور ادريس العلوي العبدلاوي
عضو أكاديمية المملكة المغربية

من المعلوم أن الأعياد الوطنية تعتبر فرصة من الفرص النبيلة التي يمنحها الله للأمم والشعوب لاستخلاص العبرة منها، ولتذكير الشباب خاصة بالتضحيات الجسام التي قام بها من سبقهم من المناضلين في سبيل تحرير البلاد، وما قاساه الشعب من اضطهاد وقدمه من تضحيات بالغالي والنفيس، حتى يزداد حماسهم، ويقبلون على خوض معركة الكرامة والعزة، معركة التنمية الشاملة بروح ثورية وشابة، تتحلى بنكران الذات، وتعتمد الصدق في القول، والإخلاص في العمل.

وتاريخ الأمم والشعوب، وتاريخ الرجال العظام، صفحات مجيدة يحفظها التاريخ لتكون نبراسا مضيئا تهتدي به الأجيال في مواصلة مسيرة الأجداد، وصيانة المكتسبات، والتخطيط للمستقبل القريب والبعيد بكل وعي ومسؤولية.

إننا إذ نخلد اليوم هذه الذكرى الجليلة، ذكرى عيد الشباب، والسعادة تغمرنا والإعجاب يملأنا، فإننا نخلد في الحقيقة حدثا غير مجرى التاريخ بالنسبة لنا، إننا نخلد في عيد الشباب ذكرى ميلاد قائد ملهم ماهر، باني صرح المغرب الجديد ورائد نهضته الحديثة.

وإذا كانت الذكريات والأعياد الوطنية، ترمز إلى الملاحم والبطولات، وتحقيق أسمى الغايات، فإن ذكرى عيد الشباب المجيد، توحي بالكثير، لما لها من معان سامية، ولما تنفرد به من أمجاد ومواقف

خالدة، أعظم من أن تستوعبها الصفحات والسجلات.

إنها ترمز إلى عزة المغرب وأصالته، ووحدته وسيادته التي حافظ عليها عبر القرون والأجيال مصانة مهابة.

ترمز إلى نضاله المستميت من أجل إعلاء كلمته، وحماية مكاسبه.

ترمز إلى الالتحام الدائم المستمر، والحب الخالص الصادق، بين قائد محنك حكيم، صاحب العرش المكين، جلالة الحسن الثاني العظيم، وشعب وفي أمين، شعب المغرب الطيب العنصر الكريم، هذا الالتحام الصادق والترابط الوثيق بين العرش والشعب الذي يتجلى دائما وأبدا في مختلف المناسبات، وفي شتى مواقف الشرف والبطولات.

لقد شاءت عناية الله أن يقيض لهذا البلد الأمين من يأخذ بأسباب أمنه وأمانه، والمحافظة على أصالته وتراثه، والتشبث بأهداب رعايته وأمانته.

إن الدارس المتعمق للتاريخ المغربي ليجد أنه بفضل ما أتاه الله من قيادة حكيمة رشيدة في شتى ميادين الحضارة والعمران، وما حباه الله من نعمة العلم والعلماء الأفذاذ المبرزين، استطاع أن يحافظ على ثقافة وطنية أصيلة، راسخة الجذور والمقومات، وأمكنه بحكم ماله من حصانة ذاتية مستمدة من هذه الأصالة أن يجابه شتى التحديات الفكرية الأجنبية التي واجهته على مر العصور، وأن يؤكد ذاتيته في معترك الثقافات والحضارات المختلفة، وأن يبرز شخصيته على هذا الصعيد، ناصعة الملامح، غنية بدلالاتها، وما تنم عنه من إيحاءات خلاقة مبدعة.

وهكذا، واستمرارا لتأكيد قيمة الشخصية المغربية، وتعميق أصالتها، يقف التاريخ المغربي وقفة إجلال وإكبار أمام عظمة الدولة العلوية الشريفة، التي يحمل اليوم مشعلها الساطع، ويجسم مجدها الرائع، ويحقق أملها الواسع، جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأطال عمره، سليل دوحتها العلوية العالية، الذي حاز المجد من أطرافه، وله النصيب الأوفى في موازين العقل والنبل، والقدح المعلى في ميادين الفضل جوهرة هذا البلد الأمين، ليس له في مجده نظير ولا مثيل، فهما وعلما وأدبا وسلوكا وتدبيرا ورأيا قويما ثاقبا، لا يضع رأيه إلا مواضع الأصالة، ولا يصرف تدبيره إلا على مواقع السداد والإصابة، يعرف من بادئ الأقوال خواتم الأفعال، فهو بحق الدرة الثمينة في عقد هذه الدولة الشريفة، والنجم المتألق الذي أرصده الله سبحانه لهذا العصر الذي تلاطمت أمواجه، وتشابكت فجاجه.

وكلما هل علينا عيد الشباب المجيد، تتجدد آمال الغد الباسم، وترتسم من

جديد خضراء يـانعة، تفوح فتوة وأصـالة، تعطر الآفاق، وتحمل في ثناياها عطر الخير والنماء والعطاء.

في مثـل هذا العيـد، تحققـت مشاريـع ومشـاريع، وأصبحـت أكاليـل يزهـو بها مجدنا الشامخ، في مثـل هذا العيد، سطرت الأقلام بمداد الفخـار أنبل المواقف وأروع البطـولات التي شهـدهـا مغرب الشبـاب، مغـرب الأصـالـة والتجـديـد، مغـرب الديمقراطيـة والوطنية الحقة، مغـرب دولة القانون والشرعية.

في مثل هذا العيد السعيـد، وفي مثل هذا اليوم المشهـود من تاريـخ المغاربـة، نقف جميعـا وقفـة وفـاء وولاء، وقفـة إكبـار وإجـلال، للأدوار والمهـام الجسيمة التـي اضطلع وما فتئ يضطلـع بها جلالة الملك الحسـن الثاني نصره اللـه على مستويـات عديـدة، تتمثل فيهـا العبقريـة الفذة التـي أوتيها جـلالته، والتي هـي في الواقـع نتاج كفـاح متواصـل، وثقـافـة عميقة، وذكـاء متوقد، وجهـاد مستمر، وصبر دؤوب على مواجهة المحن والملمات، بإيمان كبير، وثقة في اللـه، وتمسـك عميـق بـالمسـؤوليـة، وواجبات الأمانة، وحقوق الرسالة.

ذلـك أنه عنـدمـا تبـدو بشائر طـلائع الذكـرى، وتلوح، تقتضي بوادرهـا المشرقة مـن الفكـر الوطنـي أن يغـوص في أعماق التاريـخ المغربي، سـابرا أغـواره، مكتشفا أسراره ودرره، وأن يتجول بالخصوص في أطوار تـاريخ العـرش العلوي المجيـد منذ النشـأة، ومـرورا بكـل المعـارك والمواقـف والأحداث والوقائع التي عـاشها المغاربة في ظـلال هذا العـرش المكـافـح، الذي ليـس كالعروش، لأنـه ينفرد بالعبقريـة المبدعة، وبـالنضاليـة المثاليـة، وبـالاستمراريـة في الجهاد المقدس مـن أجل أمجاد الشخصية المغـربيـة، ولأنـه ميثـاق دينـي وروحـي وعقـائدي، ولأنـه قائم على ربـاط البيعـة والولاء بين الملك والشعب، في عـلاقة محبة صـوفيـة وروحيـة، صنعـت معـارك الاستقـلال والتحـرر، والتشييـد والبنـاء، وصنعـت عطاءات الخير والبركـات، ولأنـه شعـارا لاستمـرار والقـوة والتحـدي والصمود، ورمز العمل المتـواصل من أجل إقرار العدل والحق، وخدمة مصالح الرعية والبلاد.

إن الأمـم لتظـل حيـة ببطـولاتها وانتصاراها، وتظل باقية في صدارة التاريخ بإنجازاتها ومكاسبها، وهكذا تشع بروحها كأنها النجمة المضيئة، ترشد السائرين على درب الحيـاة والأصـالـة والحريـة والمجـد والكرامة.

لذلك، كانت أعيـاد الأمم وذكرياتها هي العلامة المميزة التي تتجلى فيها بطولة الأمة وانتصـاراتها على الاختيـارات التـاريخيـة، وهي الـرموز الحية التـي تدل على مكـانة

الأمـة، وتظهـر حضــارتها وحضــورهـا وأصالتها ورسوخ تاريخها، وهي قبل هذا وذاك، تعكـس إلى أي حـد تتحقــق فيهـا مفاخر الأمة، وإلى أي حد تمضي هذه الأمة في طـريـق العـزة والكـرامـة والشرف، إذا تجاوبت مـع قيادتها، واستجابت لندائها، وتردد نبض واحد في قلب الأمة، وتجاوبت أصداؤه في وجدانها وضميرها المشترك.

ولا أدل على ذلــك مـن ذكـرى عيــد الشباب المجيـد، والتي كلما هلـت علينا إلا وتشــع في قـلـوبـنـا الفـرحـة، وتـذكـي في مشــاعرنــا الحماس. وحينما نقيم الأفـراح والمبـاهــج مـن أجلهــا، احتفـاء واحتفـالا وتعظيما لروعتها وجلالها وسموها، فإنما نحتفـل في الــواقــع بـذكــريـات وأمجاد وصفحات مشرقـة من تـاريخنا العـريق، صنعهـــا التـــلاحــــم المتين بين العـــرش والشعــب، والحب المتبــادل بين الـراعــي والرعيـة، وتفاني قـائد الأمة في إسعــادها، وتضحيـات من أجـل استقلالها وراحتهـا وازدهارها.

وإذا كنا نتســابق لإحياء هذه الـذكـرى الغالية، ونسعــى لنكون في الاحتفال بها في مستـوى مـا يستحقـه صـاحـب العـرش المكين، المؤيد بنصر الله وسؤدده، المحفوظ بحفظه ونعمائه، سليـل الدوحـة النبويـة، ومشعل الأسرة الشريفة العلويـة، فإن ذلك لا يعدو أن يكـون مجرد تعبير تلقائي عما تضمـره قلـوبنـا لهذا الملـك مـن حـب لا يضــاهـــى، وإخـلاص لا يحد، وطــاعـة صــادقة، قـد تـولـدت في أعماقنا منـذ أن عرفناه أميرا، وبعد أن أصبح قائدا أو رائدا وزعيما. تعلمنـا منـه الصبر، والإخـلاص، والثبات، والجد، والتضحية، والعـزم الأكيد، والحرص على الـوحدة، وخبرنـا فيه الملك المسلم الـذي حمى أمته ودينـه، فأخلـص الطـاعـة للـه ولرسـولـه، واهتـدى بهدي الإســلام، واحتمـى بـدستـور الإسـلام، وتخلق بأخلاق القرآن، فكـان إماما عادلا، وأميرا مخلصــا، وقـائدا محنكــا، ورائدا عظيما.

وكم يحلو لنـا ويطيب، أن نحتفل بهذه الذكرى الغالية، ذكرى عيد الشباب المجيد، التـي تشرق عليهـا أنوارهـا السنيـة هـذه السنة. فهي ذكرى التعلق المتين، والالتحام المتبادل، والمحبـة الصادقة، واعتـزاز شعب كـامـل بحـامـي حماه، ومحرر الـوطـن، ومحقق انطلاقته، ومنسق أهدافه وغاياته، وضــامـن وحدتـه، والســاهـر الأمين على حـدوده وكيـانـه، ومقدسـاتـه الـدينيـة والوطنية.

ففــي هــذه الذكـرى، تتجسـد بصـدق الـروابـط الـوثيقة التـي تـربـط الشعـب بالعـرش برباط مقدس متين، هـذا الشعب القوي بإيمانه، المؤمن بمقـدساته، الفخور بإنجازات بلده، المتطلع إلى غد مشرق تلوح

بشائره في كل ركن من أركانه، هذا الشعب القوي بقواعده وفكره، وطموحاته، السائر دوما وأبدا وراء ملكه، الطموح الغيور على أرضه ووطنه ودينه. المتباهي بتراثه وأصالته، الفخور بأمجاده في ماضيه وحاضره ومستقبله.

إن يوم تاسع يوليوز في تاريخ المغرب الحديث، هو رمز حي ونابض بهذه التوجيهات والآمال العريضة، ومن نبض هذا اليوم، تشكلت حيوية التاريخ والأجيال والكيان والسيادة المغربية، أرضا ونظاما وحضارة وقيما، ذلك أنه بعبارة بسيطة من حتميات الإنصاف أن يقال ويكتب: بأن العبقرية الحسنية في المجال الوطني، كما في المجالات العربية والإسلامية والإفريقية والدولية، إليها يرجع الفضل في الإشعاع المغربي، وإليها تعود النبالة السامية والصافية التي يحظى بها المغرب، والتي تعد رصيده بين الدول.

ولهذا، فالحسن الثاني، أعده التاريخ لتوجيه الجيل الجديد بفلسفة جديدة، تصدر عن القيم الإسلامية، ومبادئ المحبة والخير لصالح الوطن والإنسانية.

الحسن الثاني، الرائد العظيم، الذي يعز نظيره، ويقل مثيله، قدوة الشباب المثلى، والمثل الأعلى ذكاء وتفكيرا، وخلقا وسلوكا، وعملا وجدية، وحزما وعزما، وإرادة ونبلا، وسماحة وكرما وفضلا.

الحسن الثاني، الإنسان الملك، والملك الإنسان، الملك العالم، والعالم الملك، والحاكم العادل، تلك الشخصية الفريدة بطابعها وميزتها النادرة في التاريخ.

الحسن الثاني، القائد الراشد، والملك الملهم، الذي تربع على عرش القلوب، كما تربع على عرش المغرب بالصدق والإخلاص والتضحية. فاستحق أن ينال رضاء ربه وحب شعبه، واستحق أن يكون الزعيم الظافر، والقائد المسلم المنتصر، إذا دعا لبيت دعوته، وإذا خاطب عانق خطابه القلوب والوجدان قبل أن تتلقاه الآذان.

الحسن الثاني، بتواضعه الجميل، تواضع محمدي نبوي خالص، وصفاء سريرة هاشمية طيبة، وذكائه الألمعي، واستعداده الفكري، ومعرفته الواسعة، يتبوأ مقام العالم المتمكن، والمفكر الأمين الرصين، الذي يربأ ولا يعبأ بسفاسف المعاني، ويعدل ولا ينزل عن علياء المعالي، فقد جمع بين سمو العلم، وجلال العلماء، ونزاهة المصلحين الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب.

الحسن الثاني، الذي تجلى للعدل نبراسا يقتدى، وسراجا يهتدى، ومثالا يحتذى، في الحفاظ على المقومات، وتوفير سبل الأمن والسلام، ونشر ألوية الإخاء والوئام.

كل هـذه الخصال الحميـدة، والسجايـا العـديـدة، جعلـت جـلالتـه محط إعجـاب وتنـويـه، وإشـادة وتقديـر، مـن جميـع المؤرخين والزعماء والقـادة ورجال الفكـر والثقافة على المستوى العالمي.

وإذا أطل علينا اليوم عيـد الشباب، عيد ميلاد ملكنـا جلالة الحسـن الثاني، فـإنه يطل علينا وقد قطعت البلاد أشواطا بعيدة في عهـدها الجديـد، ممـا يـزيدنـا حماسـا واندفاعـا وتفانيا في العمل، وعزيمـة قوية للوصـول إلى أهدافنا، التـي رسمها بـدقة قـائدنا الملهـم، لاستكمال دولـة القانـون، وإقرار مبدأ الشرعية والمشروعية.

ولنا في طاقات الشبـاب وحيويته القوة النـامية، والمحـرك الـدائب الدوران، الـذي سنـواصـل بـه مسيرتنا، بقيـادة جـلالـة الحسـن الثاني نحـو الرفـاهيـة للأجيـال الحاضرة والمقبلة.

إن عرش جـلالته نجم علـوي، يرف في سماء بلادنا سنـا وسناء، وقلوبنا أبـدا به خافقات تـراه ذخرا ونورا ورجاء، فلـه منا ما امتد العمـر، وطالت السنين، أكبر الحب والإخلاص والـوفاء، وإن فـرحتنا بحلـول عيد ميـلاد جلالتـه، عيد ميـلاد العبقريـة الحسنية الخالـدة، لا يمكن أن تعبر عنهـا كلمات أو صفحـات، لأنها قـويـة كقـوة محبتنـا لشخصه الكـريم. ثـابتة كثبـوت عـرشه الماجـد العظيم. فهـو مـن سلالـة الدوحة النبوية الشريفة، وقطب من أقطاب الدولة العلـوية المنيفة، فهو شعـار حياتنا، وعنوان سعـادتنا، بعيده نحتفل، وبوجوده نستظل.

فهنيئا له، وهنيئا لنا بهذا العيد السعيد، وبحلـول كل ذكـرى وعيد، وتحيـة وولاء وامتنان لقائد الشبـاب، وبطل الأمة، ورائد المسيرة، جـلالـة الحسن الثـاني الحبيـب، مهنئا بعيد ميلاده السعيد المجيد.

وليعـش مغتبط النفـس بـأعمالـه الصالحة، وبمحبة شعبه الـوفية المستميتة الصـادقة، قـريـر العين بسمو ولي عهـده المجيـد أمين سره، الأمير سيـدي محمـد، وصنـوه الأسعـد الأمير المولى الـرشيـد الأرشد، وبسائر أفراد البيت المالك الميامين، دام عزهم وعلاهم.

الرباط - إدريس العلوي العبدلاوي .

الشباب بين التيار الإسلامي والتيار الغربي

للأستاذ محمد حدو أمزيان
رئيس المجلس العلمي الإقليمي بتطوان

منهاج الإصلاح المطروح الآن اثنان: منهاج الغرب، ومنهاج الإسلام.

وهذا يطرح أمامنا أيهما أفضل أن نربي عليه أولادنا وشبابنا، هل التربية الغربية أو التربية الإسلامية؟ فنحن الآن نعيش ظروفا متآخذة، ظروفا إسلامية في ألوان غربية، وظروفا غربية في ألوان إسلامية، حتى اختلط المنهاجان على كثير من الناس، فاختلط الاختيار بأيهما يأخذون، وأيهما أفضل أن يتربى عليه شبابنا، ويتمكن منه، ويسير على منهاجه، مع العلم أن كليهما متميز عن الآخر، وبعيد عن الآخر في واقع الأمر، ولكن الزمان مازج بينهما بالفعل حتى كاد الأمر يختلط بينهما في أيهما يقدم، وأيهما يؤخر.

وقبل مناقشتهما ينبغي أن نعرف كيف وقع هذا الاختلاط بينهما، مع أنهما في طبيعتهما بعيدان عن بعضهما، وفي البلدان الإسلامية بالذات، حتى جعل المسلمين في الحيرة بأيهما يأخذون، وبأيهما يتركون؟

وإليك البيان:

جاء الاستعمار يحكم بلاد الإسلام فنشأ عن ذلك الحكم ما يلي:

1 ـ تمدين البلاد المدنية العصرية في المواصلات والموانئ والمطارات، وفي إصلاح الإدارة والتعليم والمالية والاقتصاد والتجارة والتشريع.

2 ـ أنشأ في البلاد مدرستين اثنتين للتربية والتعليم، مدرسة تعلم العلوم العصرية بالبيداغوجية العصرية، وباللغات الحية، وتاريخ أوروبا، وأمجاد أوروبا، وأمجاد الروم، وأمجاد اليونان، وطبيعة الرؤية من هؤلاء للإسلام وأهله، فأخذ طلبتنا عندما تعلموا هذه العلوم، وتربوا

هذه التربية العصرية، ينظرون متأثرين بنظر أساتذتهم، ينظرون للإسلام وثقافة الإسلام وحضارة الإسلام كما ينظر إليها المستعمر الغربي أو الإنسان الغربي نظرة نفور وحقارة وازدراء، مع العلم أن الطلبة الذين اختيروا أن يتربوا في هذا النوع من المدارس العصرية غالبهم من ذوي البيوتات، لعائلاتهم وزن وجاه، وقدوة في أهلهم وذويهم وناحيتهم.

3 ـ أهمل الاستعمار المدارس الإسلامية، وحصر مهمتها في المسجد والطهارة والصلاة والتصوف والأنكحة والميراث، وأسقط حقها في الإصلاح والتطعيم والتلقيح والتطوير، وأبقى عليها كَتُراثٍ بالٍ جاوزه الزمان، يمثل القرون الوسطى لحضارة الإسلام وعلومه وتربيته، على أنها هي حضارة الإسلام وعلومه وتربيته في كل زمان، وفي كل بلد، تشويها للإسلام وأهله، وإمعانا في التزوير عليه، لإبعاده عن الطريق، وتنفير الناس منه، واستثقالهم إياه، وينغضون رؤوسهم إليه.

4 ـ أنشأ الاستعمار في البلدان الإسلامية المبتلاة به، بهذا التعليم المزدوج، في الطلبة نفسية متميزة وفي المجتمع كله، من شأنها أن تجعل الناس طبقتين: الطبقة العصرية والطبقة التقليدية في الأمة الواحدة، بحيث تعيش الأولى في السماء، والثانية في الأرض، علما ومالا وتمدنا ووزنا ونفوذا. فالأولى تعيش بالاختيال، والثانية بالابتذال، مما جعل الأولى تنظر إلى الثانية من فوق، والثانية تنظر للأولى من تحت.

5 ـ عندما خرج الاستعمار ترك مقاليد الحكم في البلاد في يد الطبقة المتعلمة التعليم العصري، لأنها هي التي تستطيع أن تفهم كيف تسير الإدارة، وكيف تنظم البلاد، وكيف توجه الشعب، وفق ما يرضي الاستعمار الخاص أو العام.

ومن هنا نشأ الاختلاف بين الجماهير الشعبية، وبين هذه الطبقة الحاكمة المرباة في المدارس العصرية لهذا الغرض، وللدفاع عن هذا الاتجاه في ميدان التربية والتوجيه، ومن ثم أخذت هذه الطبقة تقول: علينا إن أردنا التقدم أن نسير على منهاج أوروبا في السياسة والتنظيم والتشريع كما في كتاب: «مستقبل الثقافة في مصر» للدكتور طه حسين، والثانية تقول: نحن مسلمون وقد تحررنا من الاستعمار بدمائنا وتضحياتنا وأموالنا وشبابنا لنعيش مسلمين، ونتخلص من الاستعمار وتربيته وتوجيهه، فعلينا أن نرجع للإسلام ومنهاج الإسلام في التربية والسياسة والتشريع، نسير بلداننا بنظام الإسلام، وننظر للشعوب الأخرى بنظر الإسلام نظر التعارف والتعاون والتكامل، وفقا

لقوله تعالى: ﴿**لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

فالأولى تقول: وجب الفصل بين الدين والسياسة في الحكم تأثرا بأوروبا، والثانية تقول: الدين والسياسة والحكم شيء واحد لا ينفك بعضها عن بعض.

ومن هنا نشأ الاختلاف بين المنهاجين، ولازال قائما إلى الآن كما نشاهده فيما حولنا في مختلف الألوان. وكلاهما يدعي أنه ينطلق من الإسلام، ويخدم البلاد على مقتضى العصر، ويعمل لصالح الإسلام في مقابلة الاستعمار، إلا أن الأولى تفهم الدين في الإسلام كما يفهمه الغرب في المسيحية، أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، لأنها لم تقرأ الإسلام ولم تفهم أهدافه ومقاصده، ولا اطلعت على أمجاده ومزاياه من منظور الإسلام والمسلمين.

والثانية تنطلق من أن الدين الإسلامي والحكم والسياسة شيء واحد، لأن نواة دولة الإسلام أقامها المصطفى ﷺ بنفسه في حياته، وتابعه عليها الخلفاء الراشدون من بعده رضوان الله عليهم.

وهنا قد ينشأ تساؤل المرء مع نفسه:

هل الإسلام يريد حقا من أتباعه أن يعملوا في كل الأزمنة والظروف على إقامة الدولة الإسلامية، أم إن المسألة لا تعدو أن تكون رغبة تنشدها هذه الشعوب متأثرة بما استقر في وعيها من ذكريات تاريخها القديم؟.

وهل يقوم بناء الإسلام على مطالبة المسلمين بتطبيق نظام خاص محدد في مجال السياسة، أم أنه ترك للناس - شأن الأديان الأخرى - الشكل السياسي للدولة يصوغونها كيفما شاؤوا على ضوء مقتضيات العصر؟.

الجواب أن العلوم قسمان:

قسم يتعلق بجزئيات حياتنا، وهو الذي نتلقاه في المدارس والجامعات، ويشمل عدة علوم وفنون.

وقسم لا يتعلق بجزئيات حياتنا، ولا بمعاملاتنا، وإنما يتعلق بنا نحن، أي ببناء الإنسان نفسه، والإنسان عقل وضمير ولسان، والباقي هيكل لثبات هذه الأركان وصيانتها، وهذه الأركان الثلاثة دائما تتغذى من العقيدة، وتستقي منها ومن العقيدة، ويصطبغ إنتاجها بصبغة العقيدة.

وعليه، فالعقيدة هي كل شيء في الإنسان، وفي علوم الإنسان، وحضارة الإنسان، وهي التي تمثل العلم الكلي الذي يخلق فينا شعورا خاصا به ننظر إلى مكانتنا ودورنا في الدنيا مع الناس، ورسالتنا في الحياة، ويخلق فينا شعورا بالكون، وشعورا بإله الكون، والإيمان به، والالتجاء إليه، وعبادته وحده، وفق ما بلغنا عنه رسله الأبرار نحو الهداية إلى

الصراط المستقيم، الذي يجب أن نسلكه في حياتنا، مع بعضنا أو مع غيرنا من شعوب الأرض.

وبالإجمال فأهداف الإسلام يمكن أن نلخصها فيما يلي:

أولا: العقيدة بأن الله واحد يحكم فوقنا جميعا، وأنه أرسل رسلا إلينا يعلموننا كيف نسوس الناس في الأرض بعدل الله، طبق شريعة معينة، وتربية معينة، تتفتح لجميع العلوم التي تخدم الإنسان، وجميع المصالح التي تبني كيان الأمة الإسلامية.

ثانيا: الأمة الإسلامية واحدة لا قومية ولا عصبية ولا حزبية ولا طائفية.

ثالثا: توحيد معيار الخير والشر فما أقرته الشريعة الإسلامية أنه خير فهو خير للجميع، وما أقرته أنه شر فهو شر للجميع.

رابعا: هذه العقيدة تجعل للإنسان وزنا وقيمة عن باقي الحيوانات في الأرض كيف ما كان، سواء مسلما أو غير مسلم، من العرب أو العجم، الجميع سواء أمام الله لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، انطلاقا من قوله تعالى:

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا...﴾.

أما باقي الحيوانات فهي خلقت متاعا للإنسان في مختلف الألوان، وفقا لقوله تعالى:

﴿والله جعل لكم من بيوتكم سَكَناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخِفُّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين﴾ سورة النحل آية: 80.

وقوله: **﴿والأنعام خلقها، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون، ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تَسرحُون، وتحمِل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشِق الانفس، إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون﴾** (سورة النحل آية 8).

والمنهاج الغربي يخالف الإسلام في هذه النقط جميعا، فهو علماني لا يومن بالله ولا برسوله ولا بشريعته، ولا يومن بوحدة الأمة على أساس الدين، وإنما يومن بالمصالح والقوميات على حسب تلك المصالح التي من شأنها الاختلاف والصراع المستمر، ولا يومن بمعيار موحد للخير والشر بين الناس على معيار إلهي، وإنما يومن بمعيار مصلحي قومي ضيق، ولا يومن بالمساواة بين الناس، ولا بين الشعوب، سواء الذين يعيشون في نظامه،

أو الذين يعيشون في نظام غيره، فهو قائم على العنصرية والتمييز بين الناس، وإن كان الجميع يعيش في بلد واحد، ونظام واحد، كما نرى في أمريكا مع الزنوج أو مع الهنود الحمر، وفي جنوب إفريقيا وفي فلسطين وفي مجلس الأمن وفي النظام العالمي كله، ولا يومن بأن الإنسان له درجة فوق باقي الحيوانات، بل هما عنده سواء، انطلاقا من مذهب (داروين) المبني على النشوء والارتقاء، والانتخاب بين الأجناس، والفضل للأقوى، ولا حق للضعيف، فليذهب إلى سقر، وهذا ما يفسر لنا أهوال الحرب العالمية الثانية في دمار الإنسان وحضارة الإنسان، وهوان الإنسان، حتى وصل ما قتل فيها إلى أربعين مليونا بدون الفرق بين المرأة والرجل، ولا بين الصغير والكبير، ولا بين الشاب والعجوز. وهذا أيضا ما فعله الأوروبيون في أمريكا واستراليا وزلندا، حيث أبادوا شعوبها نهائيا، ليخلو لهم الجو في أكل أموالهم، واستغلال أرضهم وخيراتهم، وأغفلوا من الذكر، كأنهم ما كانوا أبدا، وكذلك يفعلون الآن في جنوب إفريقيا وفي فلسطين، وهذا كله ظلام وضلال، وعمى عن رعاية العدالة بين الشعوب بخلاف المسلمين، فإن التاريخ يحدثنا أن الإسلام انتشر في العالم شرقا وغربا، وما ثبت قط أن المسلمين عاملوا غيرهم بالعنصرية، ولا أبادوا شعبا في قطر من الأقطار.

ولهذا، تهفو جميع الشعوب الإسلامية إلى المنهاج الإسلامي في التربية بقدر ما تنبو عن التربية على المنهاج الغربي، لأنهما ضدان لا يجتمعان أبدا.

تطوان ـ محمد حدو أمزيان

العرش المصان

للشاعر شعاب جنبطي

تضاحك الكون أزهار وأعناب
ويصدح الطير حرا في خمائله
وهذه الأرض لا تخفي سعادتها
والليل مثل ضياء الصبح يشغله
هذا هو المغرب الفيحاء جنته
فالأرض من فرحة تسري روائحها
يعانق الأهل أهلا من عوادهم
عرش مصان، وعند الله محمده
عرش تردد في الدنيا مفاخره
عرش على رأسه المقدام من نسب
هذا هو الحسن المنصور يتبعه
ذكرى، وأية ذكرى تماثلها
محبة ترتدي ثوبا يزينها
إن كان في الحسن المغوار شهرته
علت صنائعه من غير ضائقة
يرد غائلة الأيام في جلد

ويحتفي بالنسيم الحر أطياب
وتبهج النفس أنوار وأكواب
عند الشروق حنو ثم إطراب
صوت الأمين، وفي العلياء ترحاب
ترعاه في أفق الأزمان ألباب
والشعب في غرر الأيام ينساب
ضم الأيادي، وصدر العرش مهياب
والقلب مسكنه، والقدر جذاب
ويجمع القول: إن العرش نساب
صفا، يعززه قوم ومحراب
في فرحة العمر إجماع وأتراب
فيها المحبة لم يغلق لها باب
لها من الدهر إجلال وإخصاب
فإنه زاخر بالفضل وهاب
واجتاحت الأرض خيرات وأطناب
والعقل منهجه، للخير جلاب

يمد ناصعة، يبني بها أملا ... والشعب من حوله ظل وأهداب
تجله أمم، في صوتها حكم ... إن رابه جدل، في الحكم غلاب
وإنه العقل، حيث العرب في جزع ... وإنه البدر، حيث العرب قد ثابوا
هو الضمير لشعب جال جولته ... نحو المعالي، ومنه الحق وثاب

* * *

يا أيها الحسن المنصور، إنك في ... ريادة العرب، خلاق ورغاب
جمعت أشتاتهم من غير ضائرة ... وأنت فيهم عظيم القدر وضاب
أكسبت حاضرهم نورا يجنبهم ... غدر الزمان، وكل الجمع أقطاب
إن الوفا منك أزهار معطرة ... أضحى لها من عميق الوجد ألقاب
تقضي الحياة لشعب أنت قائده ... وأنت واف لعهد الله وجاب
والله يحمي ولي العهد من زلل ... والشعب مسعده، للمجد طلاب

البيضاء ـ شهاب جنبكلي



قبسات إسلامية من الفكر السياسي الحسني

للدكتور عبد السلام أحمد فيغو
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض - مراكش

تأسست الملكية في المغرب منذ عهد إدريس الأول، حيث أسس الدولة الإدريسية (1)، وأصبح أمير المؤمنين بين شعب وفي مضياف، وخلفه ادريس الثاني في مدينة فاس، فوطد أركان الدين والدولة.

وتعاقبت بعد ذلك الأحداث، وبعد فترة من الاضطربات تعاقبت على الحكم عدة دول، حتى كانت الدولة العلوية الشريفة،(2) التي قامت على حماية استقلال هذا البلد، وبناء كيانه على أساس علمي، وتحقيق السعادة والرفاهية للشعب، والمحافظة على القيم الروحية والدينية.

وإن المعجزة التي أدهشت المؤرخين هي إقبال المغاربة على الإسلام، يتخذونه دينا، يتقيدون بأوامره ونواهيه، حتى بلغ من امتزاجهم بإخوانهم في الدين أن أمدوهم بأرواحهم، يبذلونها في سبيل نصرة دولتهم وتأييدها، ورفع أعلامها أينما توجهوا، فاتحين منصورين.(3)

ويتابع المغرب اليوم كفاحه - بقيادة جلالة الملك الحسن الثاني، في بناء المغرب المستقل، وتركيز دعائم الدولة المغربية على أسس ثابتة، اقتصاديا وسياسيا وعمرانيا وأخلاقيا - تحقيق الرفاهية والازدهار

1) تأسست الدولة الإدريسية سنة 172 إلى 375هـ الموافق 788 إلى 1018م.
2) يبدأ تاريخ الدولة العلوية في المغرب منذ عام 1660م حتى اليوم.
3) انظر محمد رضا شرف الدين : (14 يوما في المغرب).

للشعب، فيلعب المغرب دوره البارز في سبيل الإسلام والعروبة والعالم.

وهذه قبسات من سيرة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، لا أَدَّعِي فيها أنها دراسة جامعة، ولكنها تعالج بعض الجوانب الإسلامية في الفكر السياسي الحسني.

فقضايا الإسلام والمسلمين تأتي في طليعة اهتمامات جلالة الملك، ففي أول خطاب له للعرش، يؤكد جلالته على أن من واجباته تطبيق مبادىء الإسلام وقيمه السامية، ويعاهد الله على ذلك، ويقول:

«إنني أعاهد الله وأعاهدكم على أن اضطلع بمسؤولياتي، وأؤدي واجبي طبق مبادىء الإسلام وقيمه السامية».(4)

ويضيف في مناسبة أخرى، التأكيد على هذا المعنى حيث يقول:

«وينبغي أن نشير إلى أن الشعب المغربي شعب مسلم عربي، قام عبر التاريخ بدور كبير في نشر الثقافة والحضارة الإسلامية بالمغرب الإسلامي، والقارة الإفريقية على الخصوص، وإن تشبثنا بالقيم الإسلامية التي ندين بها، وتمسكنا بالقومية العربية التي نعتز بها، ليجعلنا حريصين على أن نواصل أداء الرسالة الإسلامية العربية كذي قبل، ويفرض أن يكون تعليمنا عربي التلقين، مشبعا بالروح الإسلامية».(5)

ولما عرض جلالة الملك الدستور المغربي على الاستفتاء كانت أول فقرة تتصدره:

«المملكة المغربية دولة إسلامية...».

ونص الفصل السادس على أن دين الدولة الرسمي الإسلام.

وجاء أيضا في الفقرة الثامنة بعد المائة:

«النظام الملكي للدولة، وكذلك النصوص المتعلقة بالدين الإسلامي لا يمكن أن تتناوله المراجعة».

ويعتبر الدستور المغربي أول قانون مكتوب يستند بأجمعه إلى الإسلام، ويستمد من قواعده في إقامة عدالة إسلامية، ومن أروع ما يعبر عن ذلك الروح الإسلامية قول جلالة الملك في إعلان هذا الدستور:

«ان العاطفة الوحيدة التي غمرتني دائما وأنا أهيىء مشروع الدستور كانت عاطفة مغربي متشبت بمبادىء الإسلام السامية، وبالأسس الخلقية التي نشأت عليها وتربيت منذ نعومة أظفاري، بفضل

---

4) خطاب العرش 3 مارس 1961، انبعاث أمة ج 6 ص 85.

5) خطاب 18 جمادى الثانية 1381هـ موافق 18 اكتوبر 1962م، انبعاث أمة 7/112 وما بعدها.

النهج الذي خطه لي والدي المنعم طيب الله ثراه».(6)

وقال أيضا :

«عملت على أن يكون المشروع مطابقا لاتجاه والدي قدس الله روحه، ولـمَا كان وعد به الشعب الوفي، وحرصت على أن يتفق مع مبادىء الإسلام الحنيف، وأن يستوحي اتجاهه من تقاليدنا ومقوماتنا».(7)

وقال جلالة الملك في ندوة صحفية عقدها قبل دستور 1962:

«أردنا بما ذكرنا في الدستور عن الإسلام أن نوضح أن المغرب كدولة إسلامية وَفِيٌّ لفكرة الإسلام الصحيح، يضمن حرية ممارسة الشعائر الدينية، لقد نصَّصت على الدين في الدستور، لأنني أومن بالله، ولأنني أعتبر أن كل رجل في حاجة إلى عون الله ساعة الإلهام».

وهكذا يتجلى واضحا وبما لايدع مجالا للشك والريبة على أنه لا تسامح في المقدسات والدين الإسلامي في الفكر السياسي الحسني، حيث نجد التشبث بالدين الإسلامي دائما، وفي كل مناسبة، حيث يعبر جلالة الملك عن ذلك صراحة، وكذلك الأمر بالنسبة لوحدة المذهب:

«فمن أسرار الخاصية الإلهية الربانية – كما يقول جلالة الملك – هي أننا بقينا دائما متشبثين بدين الله سبحانه وتعالى، وهو الإسلام الذي له الكتاب كأساس وكأصل، وله السنة كتطبيق وتفسير له، وله الجماعة كحصن حصين».(8)

كما يؤكد جلالته أن:

«طوق نجاتنا ووسيلة دفاعنا التي تؤمن لنا إختراق لجج العصر الحديث، بسرب وادع، وقلب مطمئن، وقدم ثابتة، وبصيرة وهداية، هو كتاب الله العزيز الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة نبيه الغراء، ومذهب إمام دار الهجرة الإمام مالك رضوان الله عليه، وإن استمساكنا بهذه المقومات التي هي مقومات أصالتنا منذ أن رحب وطننا بالإسلام، وإن استمساك أبنائنا وأبناء أبنائنا بهذه الذخيرة الغنية الزكية لأفضل معتصم لنا، وخير حرز وملاذ لأجيالنا القادمة، ويكفي أن نعرض ما يعن لنا – كلما اصطدمنا بوافد غريب من التيارات

---

6) خطاب يوم 18 / 11 / 1962.

7) خطاب 7 / 12 / 1962.

8) خطاب جلالة الملك ليوم 23 ذو القعدة 1408هـ /8 يوليوز 1988م، منشور في (خطب وندوات جلالة الملك الحسن الثاني) ص 57، نشر وزارة الإعلام.

والأفكار والمذاهب ـ على محك ما نومن به، مما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، ليستبين لنا الطريق اللاحب المستنير بالنور الصادق الذي لايخدع ولا يكذب، فليس لنا، ولن يكون لنا أبدا حصن يحمينا من المزالق والضلال، ولاجُنَّة واقية تدرأ عنا المكاره والأضرار غير البرهان الذي جاء من ربنا، والنور المبين الذي أنزله الله إلينا».(9)

ولقد وجدت نظرية الحكم التي وضعها صاحب الجلالة ترجمتها التشريعية في (المادة 19) الواردة في الدساتير المغربية الثلاثة، والتي تقول على أن: «الملك أمير المومنين...»، حيث إن من مميزات الفكر السياسي الحسني تشبثه بإمارة المؤمنين كلقب من ألقاب رئيس الدولة في الفكر السياسي الإسلامي.

وتمثل هذه الفكرة في الفكر السياسي الحسني معلما من المعالم الرئيسية، المستمدة أصولها من الفكر السياسي الإسلامي، حيث إن أول من لقب بهذا اللقب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه،(10) وقد أخذه الملوك العلويون بعد ذلك، وارتضوه لقبا لهم، وقد تشبث أمير المؤمنين بهذا اللقب، بل وعمل على تقنينه في الدساتير المغربية الثلاثة، حيث نصت (المادة 19) من الدستور على أن:

«الملك أمير المومنين، والمثل الأسمى للأمة، ورمز وحدتها...».

---

9) خطاب العرش ليوم 14 رجب 1408هـ / 3 مارس 1988م، منشور في (خطب وندوات صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني) ص 12، نشر وزارة الإعلام.

10) يقول ابن خلدون في تبرير هذا اللقب: «لما بويع أبو بكر رضي الله عنه كان الصحابة رضوان الله عليهم، وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله ﷺ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك، فلما بويع لعمر بعهده إليه، كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله ﷺ، وكأنهم استثقلوا هذا اللقب لكثرته وطول إضافته، وأنه يتزايد يوما فيما بعد دائما، فكانوا يعدلون عن هذا اللقب إلى ما سواه مما يناسبه ويدعى مثله، وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير، وهو فعيل من الإمارة، وقد كان الجاهليون يدعون النبي ﷺ أمير مكة وأمير الحجاز، وكان الصحابة أيضا يدعون سعدا بن أبي وقاص أمير المومنين لإمارته على جيش القادسية، وهم معظم المسلمين يومئذ، ثم يستطرد مبينا واقعة إطلاق هذا اللقب بصفة رسمية على الخليفة عمر فيقول: «واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه يا أمير المومنين فاستحسنه الناس، واستصوبوه، ودعوا به، يقال أن أول من دعا بذلك عبد الله بن جحش، وقيل عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وقيل بريد جاء بالفتح من بعض البعوث، ودخل المدينة، وهو يسأل عن عمر، ويقول: يا أمير المومنين، وسمعها أصحابه فاستحسنوه، وقالوا: أصبت والله اسمه، إنه أمير المومنين حقا، فدعوه بذلك، وذهب لقباله في الناس، وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لايشاركهم فيها أحد سواهم سائر دولة بني أمية». (المقدمة ص : 579).

وفي اتجاه إبـــــراز دور أمير المومنين كحكـم يـرعـى حقـوق المواطنين قـاطبـة، ويؤمن وسائل الدفاع عنها، ويحرص على الاستجابة لكل الآراء والمواقف والتصورات، على تعارضها وتباعدهـا عن بعض أحيانا، قال جلالة الملك:

«إن المغاربة كلهـم يستظلون بظل أمير المومنين، ويـذهبـون للتحكيـم عنـد رمحه ليدافع عنهم، فإن هذا تقليد خلقناه، إنه في مستـوى ملك المغـرب، ليـس هناك فصـل السلــط، لهذا رأيتمـوني أجمع الـــوزراء، وأجمع بعض اللجـان البرلمانية، وأجعلهـم يشتغلون أمـامي، وكأنهم ما هـذا الجانب تنفيذي، والآخـر تشريعي، والـديمقراطيـة الحسنيـة لـن تكـون كاملـة، ولـن أكـون مطمئنا إذا لم أعلم المغاربـة كيف يقومون بالمعارضة لحكومـة ملك المغرب، وفي اليوم الذي سأضيف هذه الحلقة في الديمقراطية الحسنية، إذ ذاك، سـأعتبر نفسي قد أديت واجبي نسبيا على الوجه الأكمل».

ومما يجب الإشـارة إليه هنـا، هو أنـه رغم أن دستـور المغرب الحالي ينـص على إمارة المومنين، فـإنه يحتفـظ بلقب الملـك، حيث ينص الفصل الأول من الدستور على أن : «نظـام الحكم بـالمغـرب نظام ملكيـة دستورية ديمقراطية واجتماعية».

وفيما يتعلق بفكرة البيعة، فقد أخذ بها واستمدهـا من الفكر السياسي الإســلامي، ويقول جلالته في ذلك :

«البيعة ليسـت الشيء الذي يـأتي قهرا، أو نأخذه من الناس قوة وتجبرا، بل البيعة تقتضي الترابـط، لـذا سميت البيعـة التـي ذكرتها لكم في سورة الفتح بيعة الرضوان، لأنها كانت بيعة الرضوان، بمعنى رضوان اللـه على المسلمين جميعـا الذيـن بـايعـوا النبيﷺ وكـذلك، فإن من بـاب الاشتقاق الـرضـــوان والتراضي نجـد أصلهـــا شيء واحد»(11).

فـالبيعـة المتبادلـة بين المغـاربـة وبين جلالة الملك هي من مبادىء نظام الحكم في المغرب، ويؤكد عليها جلالته بقوله بأنها:

«تعـاقـد بين الأمة وملكهـا، هـي أخـذ وعطاء مستمر بينهما، فـلا يمكن للملك أن يفـرض عليهما شيئا لم تـرده، ولا يمكـن أبدا أن يغصبها حقا من حقوقها، فالترابط بين الملك وشعبه مبني على إرادتين لا إكراه بينهما ولا قهر»(12).

إنشـاء المعاهـد الإسلاميـة

يسجل التـاريـخ على مـر العصـور في صحيفـة جـلالة الملـك منجـزات عظيمـة، ستبقى شـاهدا بعظمـة أمير المومنين، من

11) خطاب 23 / 10 / 1975.

12) (جلالة الملك الحسن الثاني ملك المملكة المغربية: الإنسان والملك) ص 20 وما بعدها.

ذلك مثلا، إنشاؤه لدار الحديث الحسنية، ففي خطاب ألقاه جلالة الملك بمناسبة إنشاء دار الحديث الحسنية قال فيه:

«لقد كانت أمنية عزيزة علينا، هاته الأمنية التي نحققها اليوم بتدشين دار الحديث، في هذا الحفل الذي يضم طائفة من علمائنا، ونخبة من حاملي مشعل الهداية بيننا، ومنذ أولانا الله مقاليد هذه الأمة، ونحن بحكم التربية التي نشأنا عليها والدنا المقدس طيب الله ثراه ونور ضريحه، فعمل لتستمر الهداية الإسلامية تنير بإشعاعها الخالدة هذه الديار، باذلين في سبيل ذلك كل نصح وتوجيه، محصنين مقوماتنا الروحية التي نعتز بها من كل زيغ وتضليل وتحريف، مومنين بأن لا صلاح للأمة الإسلامية إلا بما صلح سلفها، وأن نستقي توجيهاتنا وتصرفاتنا من ذلك المعين الذي لا ينضب:

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.

«تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك».

ثم قال حفظه الله:

«ولكي يستمر هذا العمل، وضمانا لانتشاره وازدهاره، ندشن في هذه الليلة المباركة دار الحديث الحسنية»(13).

13) انبعاث أمة: ج 9 ص 6 وما بعدها.

واهتماما من جلالته بهذه الدار - رغم انشغالاته الكثيرة، - فإنه أعاد التذكير في ختام الحفل الديني بليلة القدر لعام 1407هـ بكلمة توجيهية، لفت فيها أنظار العلماء إلى المقصود من إنشاء دار الحديث، وقد جاء فيها:

«إن هذا العلم - يعني علم الحديث - يلم بجميع أنواع المعرفة الشيقة التي يتطلع لها أو إليها كل ذي فكر يريد أن يزيد في معلوماته حقبة بعد حقبة».

وجاء فيها:

«ما وضعت دار الحديث إلا لحفظ الحديث وطرقه، والتطرق إليه كما يجب وكما ينبغي».

المجتمع الإسلامي في فكر جلالة الملك

أكد جلالة الملك منذ توليه مقاليد أمر هذه الأمة على أنه يعمل جاهدا لتحقيق فكرة المجتمع الإسلامي في ظل الشريعة الإسلامية، وقيمها الحميدة، فأعلن في خطاب 20 شوال 1380هـ على أني:

«أعاهد الله أن أكافح كما كافحت، وأناضل كما ناضلت، وأكون مع الشعب لصالح الشعب، متخذا من الشعب درعا حاميا للعرش، وأن أجعل العرش في مقدمة الكفاح من أجل الشعب، حتى تحقق المجتمع الإسلامي السعيد الذي تحلم

به، مجتمعا مترفها متدينا في ظل الدين، ممتدا في إطار الشريعة الإسلامية، محافظا على القيم الحميدة....»(14).

وقد عمل جلالة الملك على استقطاب القوى الإسلامية، وجعلها تنصهر في موقف موحد، يستلهم الفكر الإسلامي الأصيل، ولقد كان إحساسه بضرورة العمل على تحريك الطاقات الإسلامية، وتوجيهها في الاتجاه السليم، إحساسا عميقا، تجسد على الخصوص في القمة الإسلامية الأولى التي دعا إليها جلالة الملك سنة 1969م عقب الاعتداء الصهيوني الآثم على المسجد الأقصى.

كما تجسد في المؤتمرات الإسلامية الأخرى التي عقدت بعد ذلك، من أجل بحث ودراسة قضايا الإسلام والمسلمين، ورسم المسالك الملائمة لمواجهة التحديات والمخاطر التي تعترض طريق الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

- وقد قام جلالة الملك في فاتح محرم لعام 1400هـ الموافق 9 نونبر 1980م من بتوجيه رسالة إلى الأمة الإسلامية بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري، يدعوهم فيها إلى التمسك بتعاليم الإسلام، وإلى تحكيم كتاب الله في كل ما يحيط بالمسلمين من مدلهمات، وما يلابسها من تعتيم ومشكلات، وما يلوح في الأفق من التحديات والمفاجآت.

ولقد تميزت سياسة المغرب دائما في هذا المجال ـ كما حددها كتاب وزارة الخارجية المغربية(15) ـ بواقعية وبروح واضحة في مرماها وأهدافها.

فهذا هو المغرب كما عرفناه، وما زلنا في ظل الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، تجتمع فيه كل علامات الأصالة والعروبة والإسلام، والشعور الديني الصحيح، ويحافظ على علاقاته بالدول العربية، والإسلامية، والإفريقية الشقيقة، ويعمل لخير المجتمع العالمي، ولما فيه تحقيق السلم والعدالة.

مراكش ـ عبد السلام أحمد فيغو

---

14) انبعاث أمة: 6 / 132.

15) (الدبلوماسية المغربية في عشر سنوات) من مارس 1956 إلى مارس 1966.

يا مِلجأ الأحرار

للشاعر عبد الواحد السليمي

حيي الشباب، وصفو أيام الشباب   عطر الحياة، وزهوها عيد الشباب
ردد على سمعي أهازيج المنى   في يومه! والقوم جمع في اصطخاب
في فرحة الذكرى على سيمائهم   بشر، وفي لمحاتهم ومض الشهاب
نبراتهم، ضحكاتهم، همساتهم   عزف الكمان أجابه صوت الرباب!
يسقون في الحفلات بين رفاقهم   كأس المودة ملؤها برد الشراب
علت الوجوه بشاشة وغضارة   بسمات إغراء لفاتنة كعاب!
دنيا تموج بنور صورة عاهلي   لمحاتها، وبريقها: تبر مذاب
كل القلوب تحوم حول إطارها   زهوا بومضة طلعة الحسن المهاب
في كل ساح للرعية وقفة   ولسانها يدعو بفاتحة الكتاب
يازارع الخيرات في روضاتنا   عبق الورود بها، ونفح من ملاب
أنى خطونا في رطيب مروجها   ودروبها: فالأفق فضفاض الرحاب
طيب الربيع، ونكهة الأزهار في   دوحاتها تعلو الروابي والهضاب
وشى مطارحها الحيا، فتعانقت   أغصانها: والروض يزهر بالرباب
قف يازمان لكي تشاهد غرسنا   زاك: تسامى فوق مرتبة السحاب!
غرس يمين مليكنا زرعته ثم   سقته بالإخلاص، لا ماء السراب!
ورعته، واحتضنته باليمنى فلا   شمس تلوحه، ولا وخز الحراب
من كان في كنف الملوك وعزهم   هيهات لا يعروه نهب واغتصاب
حامي حمانا، درعنا، وملاذنا   نزهته، عن كل شك وارتياب
حمل المحبة راية في كفه   يرجو لأمته الغنيمة والثواب

واختار في توجيهه الصدق الذي   ينجي: وفي تحكيمه عين الصواب

وإذا النفوس تحكمت أهواؤها   وجدالها فيها: وروعها العتاب:

ألقت إلى شيطانها بزمامها   فتبخرت، وغدت خيالا في ثياب

تبقى المودة ما سمت أرواحنا   وصفت سريرتنا، وجاوزنا الصعاب

ياملجأ الأحرار يوم تضاربت   آراء قومي إذ تغشاها الضباب

العدل شيمتك التي أورثتها   عن خيرة الأجداد والنطف العذاب

فاخر فإنك فرع دوحة أحمد   من ذلل العقبات، وافتك الرقاب

عصر الأخوة والهداية عصره   رام السماح: فجاء بالعجب العجاب

وعلى مبادئه رسمت طريقنا   ذات المسالك للمعالي والقباب

لبيك ياقطر الندى لمن اهتدى   ركنا منيع الحصن مرعي الجناب

لبيك ياداعي الرشاد، ومنعش الأرواح : فاتحة الصراط إلى الحساب

صنعت يداك المعجزات بأرضنا   شمس الحقيقة لا توارى بالحجاب

ما قلت إلا الحق فيما صغته   إذ جاد لي فكري، فنمقت الخطاب

أنا بلبل بين البلابل في حمى   حسن الفعال شدوت في عيد الشباب

الدار البيضاء ـ عبد الواحد السلمي

حقوق الإنسان في تعاليم الإسلام

للأستاذ مصطفى بوذروة
رئيس المجلس العلمي الإقليمي بالجديدة

هذا الموضوع قد كثر القيل والقول في شأنه، وأصبح حديث الساعة لدى دعاة الديموقراطية الغربية التي استعاضت به طريقة احتلال أفكار شعوب العالم الثالث عن احتلال أرضه.

وبالنسبة للمغرب بدأت طلائعه تنشر تهريجاتها ضده منذ سنة 1280 هجرية (ما يوافق بداية القرن التاسع عشر) عند تسابق دول الغرب، وتحالفها على استعمار العالم الثالث، وكان المغرب من بين الدول التي حاولوا النيل منه عن طريق استغلال حقوق الإنسان، التي جعلوها بمثابة المعول الذي يحاولون عن طريقه الانقضاض عليه ببث التشويش والبلبلة، من أجل خلق الفوضى والاضطراب في البلد المقصود، ليقع فريسة بين يديهم، فيظفرون بغرضهم المنشود.

ويروي التاريخ أنه في عهد سيدي محمد بن عبد الرحمن، وفي سنة 1280 هجرية أقيمت ضجة ضد المغرب بإنجلترا من طرف اليهود المقيمين بها، متهمين المغرب بأنه يهدر حقوقهم.

وقد أقام هذه الضجة يهودي من كبار أثرياء لندن اسمه (روشابيل)، الذي كانت له وجاهة كبيرة لدى دولة الانجليز، التي كانت في بعض الأحوال تلجئها الظروف إلى الاقتراض من هذا التاجر، فطلب من دولة الإنجليز أن تتوسط له لدى ملك المغرب سيدي محمد بن عبد الرحمن، الذي

استجاب لطلب هذا التاجر، وأصدر له ظهيرا جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

نأمر من يقف على كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره، وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة، من سائر خدامنا وعمالنا، والقائمين بوظائف أعمالنا، أن يعاملوا اليهود بسائر إيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق، والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام، حتى لا يلحق أحدا منهم مثقال ذرة من الظلم أو يضام.

ومثل هذه الضجة عرفها المغرب أيضا من طرف فرنسا، وفي عهد بونابارت - نابوليون الثالث، الذي أوفد للملك سيدي محمد بن عبد الرحمان رسائل في موضوع حقوق الإنسان تحت ستار الدفاع عن جاليتها التي توجد بالمغرب.

وقد كان رد الشعب المغربي بقيادة ملكه عنيفا، وأن المغرب هو الذي يحق له أن يعطي الدرس في مبدأ حقوق الإنسان، التي يطبقها من تعاليم دينه.

إن مبدأ حقوق الإنسان الذي هو مبدأ أصيل في الإسلام قد استعمل من طرف دعاة الديموقراطية الغربية استعمال المظهر، الذي يحمل في ثنايا ظاهره الرحمة، وفي خفايا باطنه العذاب، حيث يتمثل مظهره في حماية حقوق الإنسان والدفاع عنها، استغلالا لذلك الشعار، وما يحمله من سامي الأفكار، وشرف الاعتبار، من أجل خلق التشويش، وبث البلبلة لدول العالم الثالث، قصد الهيمنة عليه، واستمرار التحكم في مصيره: إهدارا لما تحمله تلك المبادىء من سامي الأخلاق، التي يتوق إليها الإنسان بحكم طبعه التواق.

في حين أن الإسلام الذي جاء من أجل إسعاد الإنسانية وتكريمها جعل مبدأ (حقوق الإنسان) ركنا أساسيا من الدين، وأنه لا يعتبر المسلم مسلما إلا بالتقيد بذلك المبدأ، والعمل بمقتضاه.

ففي الحديث :

1 - يكون المسلم مسلما حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

2 - المومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا.

3 - المسلمون كأسنان المشط، إن أصيب عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ...الخ.

4 - كلكم من آدم، وآدم من تراب، ألا لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

5 - ولا يبيت المسلم شبعان وجاره جوعان.

إلى آخر الأحاديث التي تتعلق بحقوق الإنسان.

وقد جاء أيضا في القرآن:

﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

فالإسلام أراد من خلق الإنسان أن يكون كاملا متميزا في صفاته، مؤهلا لتحمل أمانته، جديرا بتبوئه لمقام الخلافة عن ربه في أرضه.

ففي القرآن :

1 - **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾.**

2 - **﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، واشفقن منها، وحملها الإنسان﴾.**

3 - **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾.** الآيات.

فالحكمة الربانية التي قضى الله بها (والله أعلم) في سابق الأزل، وقدرها في لاحق ما لا يزال: أن ما صدر عن أبي البشرية سيدنا آدم عليه السلام، ونتج عنه من إهباطه من الجنة، التي دخلها في بداية خلقه، وتنعم بها في بداية عهده، ثم أمره سبحانه بإسكان آدم الأرض، عندما صدرت منه خطيئة الأكل من الشجرة، التي نهي عن قربانها، كان ذلك (والله أعلم بحكمته) من أجل عمارة الأرض، وخلق مجتمع تسود بين أفراده الفضيلة والمحبة والوئام، وإشاعة الإخاء بينهم على مر العصور وتوالي الأيام، ليعكس الإنسان الذي استقر في الأرض بسلوكه السوي تعاليم الإسلام التي كرمه الله بها أي تكريم، فخلق الأرض والسماء من أجله، وسخرهما له من فضله، وجعل الأرض موئل فراشه، ومكان عيشه ورغده، والسماء بناء سقفه ومصدر رزقه.

ففي القرآن :

1 - **﴿هو الذي جعل لكم الأرض فراشا، والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾.**

2 - **﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا...﴾** (الآية) من الاستمتاع بها قرارا، وبما تنبته من الزرع، وما تدره على الماشية من الضرع، وما يحتاجه الإنسان من تغذيته، حفاظا على بقاء نوعه ما بقي عبر مختلف العصور، وعلى مر الدهور، فعمارة الأرض عن طريق الإنسان الذي قصد منه نشر الصفات السامية مع باقي أفراد الإنسانية هي جماع القواعد التي تنتظم في سلكها مبادىء حقوق الإنسان.

غير أن تلك الحقوق قد قيدها الإسلام بعدم تجاوزها إلى النيل من حقوق الغير، حتى لا ترتد إيجابيات تلك الحقوق إلى سلبيات وعقوق بين طبقات أفراد المجتمع، ولئلا يغير قويهم على ضعيفهم بالشطط

في استعمال حقه، وعلى حساب الإضرار بغيره.

من أجل ذلك، حصن ذلك المبدأ، وأحاطه بقيد يحد من الإسراف في استعماله، فقرر قاعدة (لا ضرر ولا ضرار)، تحقيقا لعدالة الله بين أفراد الإنسانية دون ميز بين قوي وضعيف، ولا بين مشروف وشريف.

وهذا على عكس ما جاءت به شعارات دول الغرب، التي لا تنشد من وراء النداء بحقوق الإنسان إسعاد الإنسانية، وإنما تريد استغلال ما تحمله تلك الشعارات من أجل استعباد الإنسان وإشقائه، والتاريخ أكبر شاهد.

فعندما أراد هتلر استعمار بعض الدول بما فيها المتقدمة صار يردد انتساب شعب ألمانيا إلى الأصل الآري - الذي هو اسم لشعب اكتسح شمال الهند قديما - وأن هتلر بانتسابه إلى الآريين صارينادي ليس فقط بالعنصرية المطلقة، بل وحتى داخل الجنس الأبيض، حيث كان يدعي أن الآري هو العنصر الراقي من الجنس الأبيض، وذلك يتناقى تماما مع التسمية التي أعطاها لمذهبه السياسي، حيث أطلق على حزبه اسم «الحزب القومي الاشتراكي»، والمأخوذة - حسب اللغة الألمانية - من «نا» المستخرجة من «ناسيونال»، «زي» المستخرجة من «سوزياليست».

وهذا يشكل نظام الميز العنصري للآرية على غرار الفاشستية التي كان ينادي بها موسولوني بإيطاليا، فكان كل من الشعارين يحمل في ثناياه ديكتاتورية الحزب الوحيد وطغيانه.

هذه هي شعارات الغرب التي تنطلق من أجل استعمار الشعوب وجعلها تنوء تحت وطأته، وتفضي إلى إشقائه، على عكس تعاليم الإسلام، الذي شرف الإنسان وكرمه بجميع صنوف التكريم، تلك التعاليم التي تختلف عن شعارات دعاة الديموقراطية الغربية حسب ما يلي:

1 - من اعتبار مبدأ حقوق الإنسان مجرد فضيلة وآداب.

2 - أن فكرة التعسف في استعمال الحق الواردة في التشريع الحادث إن هي طبقت على الحقوق الفردية المدنية فإنها لا تطبق على حقوق الشعب السياسية.

ولا أدل على ذلك من نظام الميز العنصري المطبق بجنوب إفريقيا رغم صدور الوثيقة العالمية لمبادىء حقوق الإنسان، ذلك النظام المسمى (بالأبارتيد) الذي يشخص حكم الأقلية البيضاء على الأغلبية الزنجية، الأمر الذي يتنافى حتى مع مفهوم النسبية للديموقراطية، التي تفرض على الأقلية الخضوع للأغلبية.

ولذلك، كانت تعاليم الإسلام للبشرية من أجل إسعادها ثابتة باستقرار دون

غيرها من التعاليم التي لا تلبث دون أن تعرف الانهيار.

فالنازية، والفاشيستية، والشيوعية أخيرا، التي قلبت الأوضاع رأسا على عقب قد انهارت من تلقاء نفسها، وبقدرة قادر، إذ ما تحمله تلك الشعارات من حقيقة معاكسة للأخلاق البشرية أبى الله إلا أن ترتد على نفسها تحقيقا لقوله تعالى: **﴿فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾**.

وهكذا، يظهر الفرق جليا بين حقوق الإنسان، التي جاءت بها تعاليم الإسلام، والتي لا تنشد من ورائها إلا إسعاد الإنسان الذي كرمه الله أيما تكريم، وخلق الكون من أجله، والتي يستمر عطاؤها للإنسان في حدود الحفاظ على حقوق غيره، مما يضمن للمجتمع الاستقرار، ويحفظ للإنسان حقوقه دون الإهدار. وبين حقوق الإنسان التي هي من وضع البشر المنطلقة من جموحه الفطري، الذي يتحكم فيه حسب حاجياته دون اعتبار لوازع، ولا ترقب لردع رادع، للظفر بمراده، تحقيقا لمبدأ : «الغاية تبرر الوسيلة».

وشتان بين عطاء من هو مستغن بنفسه، متفضل على غيره. وبين عطاء من هو محتاج في حياته إلى غيره.

فكان العطاء الأول من الله قارا لا يطرأ عليه (حسب مستجدات الأحداث) أي تغيير أو تزييف، عن طريق التبديل والتحريف، على غرار ما تم للوثيقة العالمية لحقوق الإنسان المضاة في (سان فرانسيسكو) سنة 1947، حيث لم يجف مدادها، ولا استقر يراع ما حبره مخططوها، حتى أجهز عليها من طرف موقعيها، بخلق دويلة إسرائيل في قلب الأمة العربية، واغتصاب أرض فلسطين من يد أبنائها، وطردهم من وطنهم، والزج بهم، إلى التسكع عبر العالم، عن طريق إصدار قرارات مجلس الأمن، بتبرير حق إسرائيل في إيجاد وطن لها على حساب الفلسطينيين، الذين أبعدوا عن أرضهم، ولا زالوا مشردين.

في حين أن الإنسانية التي يتخذون شعار الدفاع عن حقوقها، كما تعتبر في حق إسرائيل الغريبة عن الأرض، يجب اعتبارها أكثر في الفلسطينيين، الذين هم أصحاب تلك الأرض، وعاشوا فيها حقبا ودهورا، ولم يجعلوا منها ممرا ولا عبورا، مما يجعل مبدأ حقوق الإنسان في نظر الغرب المستعمر لا يقصد منه إلا استغلال مضمون تلك المبادىء، وجعلها تخدم مصالحهم، وضدا على حقوق غيرهم من دول العالم الثالث، وأن تلك الشعارات أصبحت تتخذ ذريعة للوصول إلى تحقيق الأهداف، على حساب حق الغير دون اعتبار لفضيلة ولا شرف.

ولإزالة الغبش الذي أصبح يحيط بمبدأ حقوق الإنسان، والتعتم الذي أضحى يرن عليها، بوحي الأهداف الوصولية التي تتعقب الفضيلة، وبكل جحود ونكران، أصدر مولانا أمير المؤمنين، وحامي حمى الملة والدين، أمره المطاع بإنشاء مجلس استشاري لحقوق الإنسان تحت رئاسة جلالته، مظهرا بذلك للعالم، ومسجلا للتاريخ، بأن المغرب - وإن كان يعمل بمبدأ حقوق الإنسان التي هي من تعاليم دينه الحنيف - فهو يتعهد مراقبة تطبيقها من حين لآخر، ليطبق ذلك المبدأ على الوجه الأكمل، حتى لا يصيبه عند التطبيق خطأ أو تعويق.

فجزى الله مولانا أمير المومنين، وأجزل له الأجر والثواب، وأمده بنصره على الدوام، وأقر عينه بولي عهده الهمام، الأمير سيدي محمد، وبصنوه السعيد الأمير المولى الرشيد، وبسائر الأمراء والأميرات، إنه مجيب الدعوات.

الجديدة - مصطفى بودروة

شباب حول الرسول صلى الله عليه وسلم

للدكتور محمد يسف
أستاذ بدار الحديث الحسنية
الرباط

قبل أن أقدم نماذج من شباب عصر المبعث، كأمثلة لإسهام شبيبة الصحابة في نصرة الحق، ومكافحة الشر والتخلف في كل صوره وأشكاله، أحب أن أقدم تصوري لمعنى الشباب فأقول:

الشباب في تصوري هو الطاقة المتجددة في الأمة، والحيوية المتدفقة في شرايينها وخلاياها، وهو قلبها النابض بالحركة، ونافذتها المطلة على المستقبل، وجسرها الواصل بين ضفتي اليوم والغد، والقناة التي تمر عبرها رياح التجديد والابتكار، والخلق والإبداع، حيث يلقح الأصيل بالجديد، ويلتقي الطارف بالتليد.

ويشهد التاريخ، قديمه وحديثه، أن الشباب كان حاضرا حضورا جادا في كل مشهد من مشاهد المجد، كما كان وراء كل إنجاز حضاري، وكل حركة تصحيحية، وتحول اجتماعي مشهود.

ومنذ القديم، أدرك الفلاسفة، ورجال الإصلاح والسياسة، قدرات الشباب غير المحدودة. وأولوه من العناية والرعاية ما هو جدير به، ترشيدا لتلك الملكات والقدرات، وتوجيها لها نحو البناء والإنشاء، لتتطور الحياة، وينمو الخير والعطاء.

وعيد الشباب الذي نحتفي اليوم بتخليد ذكراه، وما يرافق هذا الإحياء من مشاريع، وتعبئة مادية وبشرية لتفجير منابع الخير، ما هو إلا مظهر من مظاهر تكريم الفتوة، وتجسيد لعناية القيادة المغربية، ممثلة في عرشها المجيد، برجال الغد، ومناط رجاء الأمة في الاستمرار.

● **مراحل العمل الإسلامية**

عندما أذِنَ الله لشمس الإسلام أن تغمر الكون بضيائها، واصطفى محمدا عبدَه رسولا خاتما، قام يدعو إلى الله كما أمره، بالحكمة والموعظة الحسنة على مدى ثلاث وعشرين عاما، مرَّ خلالها العمل الإسلامي بمرحلتين كبيرتين، لكل واحدة منهما، خصائصها ومميزاتها وطبيعة عملها. وهما :

- المرحلة المكية، أو مرحلة ما قبل الهجرة.

- والمرحلة المدنية، أو مرحلة ما بعد الهجرة.

ولئن كان الحديث عن مرحلة المدينة أو ما بعد الهجرة هو حديث عن الدولة الإسلامية تأسيسا وتنظيما، وما يقتضيه ذلك من مؤسسات، وأجهزة وتأطير بشري، وعن المؤمرات والمكائد التي حيكت ضدها، سواء في الداخل على يد المشركين وحلفائهم من يهود ومنافقين، أو في الخارج على يد الروم والفُرس وحلفائهم، وما يقتضيه مثل هذا الوضع من أُهبة واستعداد كاملين، ويقظة دائمة، وتعبئة شاملة لكل الموارد والطاقات والفعاليات المسلحة لرد العدوان، وإحباط كل المخططات.

هذا بالإضافة إلى العمل المضْنِي الشاق من أجل بناء المجتمع الإسلامي المتميز، علما وأخلاقا وسلوكا، فإن الحديث عن المرحلة المكية، أو مرحلة ما قبل الهجرة، هو حديث عن الصراع المرير، بين جماعة مومنة قليل عددها لا تملك شيئا، وقوة حاكمة ظالمة تملك كل شيء، وعن البحث الجاد والدائم عن سند للإيمان يقوم إلى جانب الحق، ويكبت الظلم والكفر، وفضاء يتسع للفكرة الإسلامية، ويتوفر لأنصارها في حدوده، الحد الأدنى من الأمن النفسي والطمأنينة القلبية.

وسأقتصر في هذا الحديث على تقديم صورة نضالية شباب خلال الفترة المكية، مرجئا الحديث عن فترة ما بعد الهجرة إلى مناسبة قادمة إن شاء الله.

شباب في قلب المعترك :

تتميز المرحلة المكية بأن أغلب السابقين إلى الإسلام فيها كانوا شبابا، لعل أسنهم كان لا يتجاوز الأربعين من عمره.

ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن الشباب بطبعه أشد نفورا من القديم البالي من العوائد والتقاليد والأفكار، لا سيما إذا كان الدعاة إليها من أهل الأمانة والصدق والعفاف والإخلاص.

وقد وجد الرسول الأكرمﷺ نفسه منذ البداية، محاطا بعصبة من الشباب المومن، الذي تحدوه الرغبة الصادقة في التغيير، وقلب الأوضاع، والإطاحة بالمتحجر الفاسد

من النظريات، واقتلاع جذور الوثنية من الأساس.

ولكن العمل الإسلامي، هو مثل كل عمل تصحيحي في بدايته، لابد أن يصطدم بالعقبات، وتواجهه المصاعب والعوائق، التغلب عليها واختراق حواجزها يتطلب قدرا غير يسير من الصبر والتضحية. وكان قدر هذه الزمرة المؤمنة من الشباب أن تجتاز امتحانا عسيرا، وتتحمل الصدمة الأولى بثقة في النصر لا يعتريها شك، وثباتٍ على المبدأ لا يشوبه وهن، ولا تردد، ولا فُتور.

كان من الطبيعي أن تختلف أدوات العمل الإسلامي: طبيعة وأسلوبا، في الفترة المكية عنها في الفترة المدنية، إذ في غيبة الإذن بالرد على العدوان بالمثل كان على الجماعة المومنة أن تواجه التحدي بالرد السلبي، وتوطين النفس على احتمال المكروه أيا كانت درجة شراسته.

وبالمقابل، تركز الاهتمام على تعميق المعرفة، وكثر الوعي بين أفراد الجماعة الإسلامية، والاجتهاد في نقل الخطاب الإسلامي إلى جميع الأوساط، وفك الحصار عنه.

● دار الأرقم :

وفي نطاق إشاعة المعرفة بين المسلمين، أنشىء أول معهد ورباط للعلم والعبادة في تاريخ الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم، أحد السابقين الأولين إلى الإسلام من شباب مكة. تبرع ببيته الذي كان بعيدا عن كل شبهة، ليكون مركزا تعليميا، ومسجدا ورباطا يلتقي فيه الرسول يوميا بأفراد الجماعة الإسلامية، يبلغهم ما جد من أمور الوحي، ويعلمهم ما ينفعهم من أحكام الدين وشؤون الدنيا، ويجيب عن أسئلتهم، ويستمع إلى تقاريرهم عن سير الدعوة، وما يحدثه ذلك من ردود الفعل الإيجابية والسلبية، ويستقبل الوافدين الجدد من الذين شرح الله صدورهم للإيمان والتقوى، ويلقنهم ما هو ضروري من أمور الدين، ليندمجوا في الجماعة الإسلامية، ويأخذوا دورهم في تنشيط العمل، والمساهمة في التعريف به بين أهلهم وأقاربهم وأصدقائهم على قدر ما يستطيعون، وكان يشغله حال المحتَجَزين من شباب الإسلام في بيوت أولياء أمورهم منعزلين عن دنيا الناس.

وكانت طائفة من الشباب ممن آمنوا بربهم قد صودرت حريتهم، وعذبوا بوحشية وجهالة، منهم: مصعب بن عمير، وأبو جندل بن سهيل بن عمرو، وأخوه عبد الله بن سهيل بن عمرو، وأبو بصير، وسلمة بن هشام. والوليد بن الوليد، وطائفة من الذين معهم.

فكانت دار الأرقم مدرسة علمية ورباطا للعبادة. وتَلقي الأمر بالجهاد بالمعنى المناسب للمرحلة، كما كانت خلية سياسية، ومنتدى ثقافيا وتربويا.

صبر الشباب واحتماله :

كان لا بد للشرك أن يقوم برد فعل عنيف إزاء حركة الشباب الذي تمرد في نظره على قيم الآباء والأجداد، ولاسيما من كان ينتمي مِنْهُمْ إلى طبقة المستضعفين الذين قُمِعوا بشراسة، فتحملوا الأذى بنفس راضية وقلب مطمئن.

قال السهيلي في سياق تعذيب من أسلم: «وكانوا يلبسونهم الأدراع من الحديد حتى يُعْطُوهُمْ بألسنتهم ما سألوا من كلمة الكفر، «إلا بلالا».

وإن استقراء الوقائع والأحداث لفترة الإرهاب هذه، لتكشف من حيث الصبر والاحتمال عن أنموذجين اثنين من شباب الدعوة، سجلوا بسيرتهم الجهادية أروع صفحات النضال الشريف من أجل الثبات على المبدإ، وحماية الاختيارات الفكرية والاعتقادية:

أنموذج تحدى التعذيب، وهانت عليه نفسه في ذات الله، فواصل بكبرياء المومن وعزته، رفض كل المساومات على المبدإ، وباءت كل محاولات إذلال كبريائه بالفشل الذريع.

أنموذج هو عكس الأول، إذ نال مس التعذيب من صلابة صموده، فاتقاه بقول يحسبه السامع كفرا وارتدادا، وما هو إلا رخصة أباح الشرع استعمالها عند الضرورة، إذا كان القلب مطمئنا بالإيمان، تيسيرا على الذين لا يطيقون العذاب إلا في حدود معينة، إذ الإيمان مقره القلب، وليس اللسان، ومن ثم رخص للمومن في حال الإكراه أن يقول بلسانه، إذا خاف على نفسه حتى يأمن.

وقد قال ابن مسعود: «ما من كلمة تدفع عني سوطين إلا قلتها».

وكان لابد من هذا التيسير لتواصل مسيرة الإيمان رحلتها نحو النصر، ويتحقق موعود الله في الأرض.

ولعل بلال بن رباح الحبشي «ض» كان الانموذج الأرفع للفريق الشاب، ذي الصبر بلا حدود، فقد رفض بعناد وإصرار، أن يتخلى قيد أُنملةٍ عن مبدئه، فارتدت خاسئة أمام قدرة صموده كل الممارسات، وكان شعار التوحيد: «أحد، أحد» هو النشيد الذي لا يمل ترداده، وهو كان جوابه الذي لم يتغير أبدا على ممارساتهم الوحشية في نهاية كل جولة تعذيبية أصابوا بها جسده.

كان بلال مولى لبعض بني جمح، مولدا في مواليدهم قبل أن يشتريه أبو بكر الصديق ويعتقه.

وكان أمية بن خَلَف يخرجه إذا اشتد حَرُّ الظهيرة. فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يامر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له:

«لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول ـ وهو في البلاء ـ : أحد، أحد.

قال ابن إسحاق: وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذّب بذلك ويقول: أحد، أحد، فيقول له: أحد أحد والله يا بلال. ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بني جمح فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأ تخذنه حنانا، أي منسكا ومسترحما.

ومن المؤكد، أن الذين عذبوا بلالاً، عذبوه بدافع الحقد عليه والكراهية له، ولكنهم بالمقابل كانوا يُكْبرون فيه رجولته وشموخه وثباته وإيمانه.

لقد اجتاز بلال محنة الإيمان بنجاح، وخرج منها عزيزا ظافرا منتصرا. وسيبقى بلال ورفاقه في المحنة، ومنهم خباب بن الأرتّ، قدوة للشباب المناضل ما تعاقبت الأيام، وتوالت العصور والأزمان، وستظل سيرته درسا ومثالا تتعلم منه الأجيال فن الصبر والتضحية والثبات والفداء.

وربما كان عمار بن ياسر ـ وهو سليل بيت عريق في الجهاد والاستشهاد ـ خير من يمثل الأنموذج الثاني من شباب عصر البعثة، ذوي القدرة ذات الاحتمال المحدود.

كان آل ياسر موالي لبني مخزوم، أسلموا قديما، وقد ذكر ابن إسحاق أنهم كانوا يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه وأمه إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمربهم رسول الله ﷺ فيقول: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة».

فأما والدته سمية فقتلوها وهي تابى إلا الإسلام، فكانت أول شهيد في الإسلام.

ومات ياسر تحت العذاب، ونفس المصير لقيه عبد الله أخو عمار.

أما عمار فقد عُذِّبَ حتى فقد وعْيَه، وشكا ما يلاقيه إلى رسول الله ﷺ قائلا: لقد بلغ منا العذاب كلَّ مَبْلَغ، فقال له رسول الله ﷺ: «صبرا أبا اليقظان». وقال: «اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بالنار».

وعصم الله قلب عمار، فثبت على إيمانه، وعفا الله عما صدر مِنْ لسانه تحت الضغط والإكراه.

إن وجود هذين الأنموذجين على الساحة في قلب المعترك كان له أثره البعيد في تطوير العمل الإسلامي، وإخراجه من منطقة الحصار، فقد انشغل الإعلام العربي بأحداث الاضطهاد التي تجري بمكة ضد الفئة المغلوبة على أمرها،

فأصبحت حديث المجالس في كل مكان، ومع الزمن تحول إلى إعجاب بصبرهم وصمودهم، مما مهد للدعوة الإسلامية الطرق والأسباب. كما كان لهذا الوجود تأثير نفسي على الشرك بفعل ما أصاب رموزه من تحد على يد من كانوا يسمونهم عبيدا مملوكين.

وذلك ما سيعطي ثماره في المستقبل القريب.

وواصلت الكتائب المسلمة الشابة نشاطها بقيادة رسول الله ﷺ، في وسط هذا الاضطهاد، وتوالت انتصاراتها المعنوية بما تنتزعه كل يوم من أنصار لها جدد، انتزاعا من صفوف الشرك وأنصار، تتعزز بهم مسيرتها الظافرة.

وكم كان ذل الشرك وخيبته يوم أن أعلن حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب عن اختيارهما الإسلام دينا، كان ذلك نصرا للإسلام والمسلمين، وهزيمة للشرك والمشركين.

* * *

- الشباب المسلم والعمل الديبلوماسي :

وبدأ العار والهزائم تتوالى على معسكر الشرك، وكاد رموزه أن يستنفذوا كل وسائل القمع والاضطهاد دون جدوى، خصوصا بعد أن فشل الحصار الاقتصادي الذي كان ربما آخر سلاح فاعل يستعملونه لقهر عزة المسلمين، وإذلال كبريائهم.

﴿فما وَهَنوا لِـمَا أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثَبِّتْ أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين﴾ وضاعف من قلق حكومة مكة أن فئة من هؤلاء الشباب قد تمكنوا من استغفال الحراسة، واجتازوا الحدود، ودخلوا الحبشة لاجئين. فَسُقِطَ في أيدي الشرك، التي باتت على وجل مما يمكن أن تخلقه مثل هذه الحركة الذكية، التي خططت لها القيادة الإسلامية بدقة، من متاعب في علاقاتها مع الخارج، وقد ينعكس أثرها سلبا على مصالحها الاقتصادية. فكان رد فعلها الفوري هو إرسال بعثة ديبلوماسية على رأسها عمرو بن العاص. إلى الملكة الحبشية لإقناع نجاشِيِّها، وحكومته بعدم قبول المسلمين لاجئين في بلادهم، وطرْدِ الذين يوجدون بالفعل في الحبشة...

ولكن القيادة الحبشية يومئذ كانت ذات مستوى خلقي رفيع، إذ رفضت منطق المغالطة والتزيد والافتراء والرشوة، وقررت أن تواجه بين السفارة القرشية، وقيادة المسلمين في المَهْجَر، ممثَّلةً في جعفر بن أبي طالب وهو يومئذ شاب ثقِفٌ ذكي نبيه.

وأسفرت هذه المواجهة عن فوز كاسح، ونصر مبين للإسلام، بما التزمه الناطق باسمه في مجلس النجاشي وكبار رجال دولته، من مصداقية واستقامة وصراحة، بعيدا عن منطق الرشوة وشراء الضمائر، وهو ما اعتمدته الديبلوماسية المكية التي حملت معها هدايا وتُحَفاً وطُرَفاً، تريد كسب النصر عن طريقها، فكانت عاقبتها خذلانا وخزيا واحتقارا.

ولعل في هذا النصر الديبلوماسي ما يشهد بفعالية التكوين العالي الذي تلقاه شباب الإسلام على يد رسول اللهﷺ، في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وجعفر بن أبي طالب واحِدٌ من خريجيها اللامعين، وهو كذلك دليل لا يقبل الطعن بحال، على أن الجماعة الإسلامية بمكة كانت مكونة أحسن تكوين، قادرة على تأطير الدولة العصرية الإسلامية بكل ما تحتاج إليه دواليبها ومؤسساتها من أطر.

والوجود الإسلامي بالحبشة لم يْخلُ من تأثير ناشيء عن المستوى العلمي والخلقي والسلوكي للمهاجرين إلى الحبشة، ظهر أثره واضحا في إسلام النجاشي نفسه، ومعه عدد من كبار رجال دولته، وأعيان أمته.

وشاء الله أن يكون إسلام عمرو بن العاص على يد هذا النجاشي، الذي كان له صديقا.

وللشباب الإسلامي في الفترة المكية أخبار وقصص في البطولة والتضحية والاستشهاد لا يمكن استقصاؤها في بحث محدود كهذا.

ولَمْ تكن الفتاة المسلمة غائبة عن هذا المعترك، فقد أسهمت بشجاعة وأَرْيحية، وقدمت للتاريخ شهداء أخذْنَ مواقعهن في سجل الخالدات. منهن: أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقَيْن، وعائشةُ الصِّدِّيقية أم المومنين، وقَبْلَهما خديجة بنت خُوَيلد أم المومنين، وسمية الشهيدة أم عمار بن ياسر، وزنيرة، والنهدية، وغيرُهن من الأسماء اللامعةِ في دنيا الجهاد والبذل السخي، والقائمة طويلة.

الرباط ـ د. محمد يسف

شباب الفكر

للشاعر عبد الواحد أخريف

أهل بيمنه (عيد الشباب) ... وفي قسماته نور الشباب
جبين مشرق وضياء وجه ... وحسن ليس يستر بالحجاب
طموح يشرئب إلى المعالي ... وعزم في شموخ والتهاب
إرادته بإصرار تجلت ... لتنتج لا تبالي بالصعاب
وحزم يكسب الأعمال روحا ... فتاتي فوق عد أو حساب
وهمته لو ارتقت الثريا ... لفاقتها إلى أعلى القباب
روائح عطره عود وند ... ومن نفحاتها تزهو الروابي
حديقة زهره كملت جمالا ... منسقة المشارف والرحاب
تنادي كل من فتنت رؤاه ... تعال إلى الجنان بلا اكتئاب!
إلى دنيا قد ازدهرت بناء ... وفنا في السفوح وفي الهضاب
معالم نهضة عمت ثراها ... تشيد مجدنا فوق السحاب
ووجه الأرض مخضر طليق ... يودع منه قاسية اليباب
سواعد للشباب بنت صروحا ... وهل تبني سوى الأيدي الصلاب
شباب «المغرب الأقصى» مدين ... لعاهله الموفق والمجاب
إذا نادى الشباب إلى صنيع ... يلبون النداء إلى الصواب
لهم من هديه قبس مضيء ... كما من عزمه روح الوثاب

فلا عجب إذا برزوا بناة ... لتحقيق التقدم والرغاب
وهم أبناء عاهلنا المفدى ... سليل الملك محترم الجناب
بنى مجدا لأمته عظيما ... وفخرا هو عنوان الكتاب!
كتاب المنجزات وأين منه ... صحائف من يحاول طرق باب؟!
سجل أينما نظرت عيون ... رأت آياته فوق النصاب
يضيء بيانه الوقاد عهدا ... جني الغرس ممتلئ الوطاب
على آلائه «الحسن المثنى» ... تلألأ بره بين الشعاب
فلا فج شكا من سوء عري ... ولا نهج بكى غبن استلاب
مليك ما رأى التاريخ ندا ... يضاهي ما يحقق من طلاب
فقد عمت فواضله النواحي ... عموم الغيث ياتي بالعجاب
ففي لمح من البصر اجتهاد ... وإنشاء يضم إلى الصحاب
يفجر كل يوم فيض بر ... ويسقي من منابعه العذاب
ألم تشهد جموع الشعب نشوى ... مولهة بحب مستطاب؟
تصيح كأنما مست بخبل ... وليس سوى المحبة من جواب!
لقد سكنت محبته قلوبا ... كسكنى الروح منعشة الإهاب
وتغبطنا شعوب الأرض طرا ... كغبطة مجدب لذوي انصباب
ترى حظا سعيدا قد حبانا ... به رب التفضل والثواب
وما تهوى الشعوب سوى هداة ... يقودون السفينة في العباب
لهم من حكمة الربان سر ... وفي آرائه فوز الرقاب
وفي إبداع قائدنا المفدى ... يسير النجح والرأي في اصطحاب
يراع يسكب الآيات سكبا ... وخطبة ملهم القول اللباب!
وعقل ينثر الأفكار درا ... فتنظمها الصياغة في الخطاب!
كأن الوحي يكسوها جمالا ... وسرا في الإصابة والجواب!
وإخلاص لأمته مكين ... وموروث وليس بذي اكتساب
يبادل شعبه حبا بحب ... كود أب مع ابن ذي ارتباب
وليس له من الغايات إلا ... إنالة شعبه قصب الغلاب
إذا عند الضحى أسدى جميلا ... فآخر في الأصيل على اقتراب!
فكيف يعدها شعر مقفى ... ونثر القول يعجز عن حساب؟!
مليكي عشت للأمجاد دهرا ... تدثر بالجميل من الثياب

تتمم ما بنيت لخير شعب — تقدم - من جهادك - في الركاب
مع «الستين» تعقبها «ثلاث» — شموع الحب تلمع كالشهاب
لدى كل البيوت بها احتفال — بمولدك السعيد المستطاب
أطال الله عمرك في صلاح — ففيه صلاحنا دون ارتياب
وعاش ولي عهدك في سرور — وصنو البيت في وهج الشباب

تطوان - عبد الواحد أخريف



الإسلام والعلاقة بين المسلمين وغيرهم

- معالم بحث -

الجزء الأول

للأستاذ محمد الحاج الناصر

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمدا يكافئ ما أنت له أهل، ويهيئ لنا من قبولك له عونا على اجتلاء ما نحن بسبيله مما أغفله الناس، أو غفلوا عنه من سرائر تشريعك للتوحيد أساسا لكل ما شرعت لعبادك من شعائر وشرائع، ومن أهمها وأعظمها ما أمرتم به من السعي الجاهد المستبصر إلى أن تكون كلمتك هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ياعزيز يا حكيم، ياخفي الألطاف.

ونصلي ونسلم أزكى الصلاة والسلام على محمد الحبيب المصطفى الذي ختمت به رسلك، وبرسالتك إليه رسالاتك القاصدة إلى إعداد البشرية للاجتماع والائتلاف، فجاءت رسالتك إليه إيذانا باكتمال وسائل إعدادها وسبله وتأهلها - إلا من سبق عليه القول - لتطبيق إرادتك العليا في أن تبرز فيها الأمة الهادية بسلوكها، الجامعة بما خولتها من سلطانك تحت لوائها الذي هو لواؤك لأشتات الأمم والأقوام والشعوب، سواء منهم من اهتدى بهديها الذي هو هديك، ومن خضع لسلطانها الذي هو سلطانك، وعلى آله الأخيار، وصحابته الأبرار، والتابعين له ولهم بصادق الوعي والاستبصار.

وبعد، فهذه معالم بحث نرجو أن يوفقنا الله العليم الحكيم إلى إنجازه فيما يسر الله لنا فهمه من نصوص كتابه، وسنة نبيه، المتصلة بتكييف العلاقة التي ارتضاها بين المسلمين وغيرهم من الأمم والأقوام المساكنة لهم، أو المتاخمة، أو القاصية، إن كان لا يزال في العالم قاص

ودان، بعد أن ألغت المخترعات الحديثة أو كادت تلغي كل وجود عملي فعال للمسافات والأبعاد.

ولقد كنا نود لو فرغنا إلى إنجاز هذا البحث لتقديمه كاملا إلى الندوة السابعة لمجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، بيد أن رغبة المشرفين عليها في أن تكون الأبحاث المقدمة إلى المجمع على أقصى ما يتيسر للباحث من الإيجاز، اضطرتنا إلى الاقتصار على تقديم هذه المعالم، آملين أن تكون مجرد نموذج مبسط غاية التبسيط لما نرجو أن يوفقنا الله جل جلاله إلى إنجازه في هذا المجال من بحث متمادي الآفاق، قاصدا إلى ما أمكن من الاستقصاء والاستقراء، وأملنا في الله كبير أن يعيننا عليه، ويمدنا فيه بالتبصير والتسديد والتوفيق.

1 ـ الصيغة التي اختارها المجمع للموضوع الذي آثرنا الإسهام به كانت على الشكل التالي:

«**العلاقات الدولية في الإسلام**».

ومن هذه الصيغة تفرع تعيين عناصر الموضوع، فترددت كلمة «العلاقات» في تعيينها مرتين، ومع أن كلمة «الدولة» لم تسحبها في التكرار، فإن كلمة «أل» التي تكررت معها لا تخلو من أن تكون للعهد الذهني، أو للعهد الذكري. وهذا يعني تأكيد ما افترضه العنوان من استقرار معنى أو صورة الدولة في التشريع الإسلامي. وهذا الافتراض عندنا محل نظر.

فكلمة «دولة» لم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في سورة الحشر، الآية السابعة، وموضوعها تعيين مصارف «الفيء» الذي لا يدخل في نطاق «الغنيمة»، وتبيان حكمة التشريع في تحديدها.

قال جل جلاله: ﴿**كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾.

ووردت كلمة «نداولها»، وهي مشتقة من «دولة» المصدر على القول بأن الفعل مشتق من المصدر مرة واحدة أيضا في القرآن الكريم.

قال الله جل جلاله في سورة عمران، الآية: 140:

﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾.

وذلك في معرض بيان الحكمة فيما وقع للمسلمين في أحد، من أن منها ما هو من سنة الله سبحانه وتعالى التي لا تتغير من مداولة الأيام بين الناس.

ولم يأت في القرآن الكريم ولا في الحديث الشريف ـ فيما نعلم ـ ذكر للدولة بفتح الدال وسكون الواو.

وقد أوجز الرازي في «مفاتيح الغيب» ـ ج: 29، ص: 286/287 ـ فأبدع الفرق بين الصيغتين، فقال نقلا عن المبرد:

الدولة: اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم، يكون كذا مرة، وكذا مرة.

والدولة بالفتح: انتقال حال سارة إلى قوم عن قوم. فالدولة بالضم ما يتداول، وبالفتح مصدر من هذا. ويستعمل في الحال السارة التي تحدث للإنسان فيقال: هذه دولة فلان، أي تداوله. فالدولة ـ يعني بالضم ـ اسم لما يتداول من المال. والدولة ـ يعني بالفتح ـ اسم لما ينتقل من الحال(1).

ويتراءى لنا ـ والله أعلم بسرائر كتابه وشريعته ـ أن ذلك كان لمناط خفي لطيف بعيد الدلالة، هو أن الإسلام لا يتعامل مع مدلول الدولة ـ بفتح الدال ـ الاجتماعي والسياسي كما استقر عليه الاصطلاح أو العرف في المجالين السياسي والقانوني بين الناس، وأوجز تحديده «علي صادق أبو هيف» في كتابه: **«القانون الدولي العام»** ص: 113/114 بقوله:

الدولة هي مجموعة من الأفراد يقيمون بصفة دائمة في إقليم معين، وتسيطر عليهم هيئة حاكمة ذات سيادة.

فوجود الدولة ـ كما يتبين من هذا التعريف ـ يستلزم عناصر ثلاثة، هي:

أولا: مجموعة من الأفراد.

ثانيا: إقليم معين تقيم عليه هذه المجموعة بصفة دائمة.

ثالثا: هيئة حاكمة ذات سيادة تتولى شؤون المجموعة، وتسيطر على الإقليم.

وقد يتراءى ـ بادي الرأي ـ أن بين هذا التعريف وبين ما ذكره الرازي وغيره من أهل اللغة والتفسير في معنى الدولة بالفتح فرقا بعيدا يبدو معه تعريف «علي صادق أبو هيف» غريبا عن تعريفهم، بيد أن شيئا من الفقه لدلالة التعريفين يجلو عنهما لبس البعد أو الغرابة، ذلك بأن انتقال «حال سارة عن قوم إلى قوم» هو بالضبط ما يحدث في الدولة في وضعها الحديث المتمثل في التعريف القانوني لها، سواء بانتقال الحكم داخلها من فرد إلى فرد، أو من جماعة إلى جماعة، أو بانتقال السيطرة على إقليمها وسكانها من أهلها إلى المتغلبين عليها بالغزو أو بالتآمر أو بأية وسيلة أخرى من وسائل الغلبة والقهر، وكلاهما انتقال حال سارة عن قوم إلى قوم.

والقاعدة الثابتة للتنظيم الإسلامي للمجتمع هي الاستقرار والاستمرار.

---

1) انظر: الراغب «مفردات القرآن» ص: 252. ـ وابن منظور «لسان العرب» ج 11، ص: 252. ـ والفيروز أبادي والزبيدي «تاج العروس» ج 7، ص: 326/327.

ثم إن الإسلام لا يتعامل مع أي اعتبار للأرض، فالأرض في شريعته ملك لله الواحد القهار، استخلف عليها المسلمين ما أقاموا دينه، ورفعوا كلمته.

يقول الله الخبير القدير في سورة النور، الآية: 55:

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾.

فخلافة الله في الأرض موعودة للمؤمنين ما عملوا الصالحات، وهي عمارة الأرض وسياستها طبقا لشريعة الله، فإذا انحرفوا عن شريعة الله فقدوا الأهلية لوعد الله، فصارت الخلافة في الأرض إلى من هم أصلح لعمارتها.

يقول الله الخبير القدير في سورة الأنبياء، الآية: 105:

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾.

فالأرض ميدان تطبيق التعامل، وليست عنصرا في التعامل معتبرا بين المتعاملين.

ويتجلى هذا المعنى في أن بيان الأوضاع البشرية وتطوراتها، والعوامل المكيفة لتلك الأوضاع والأطوار، وخاصة بيان وضع المسلمين الاجتماعي والسياسي، ومعالم وحدود العلاقة بينهم وبين غيرهم، جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية منحصرا في اعتبار الناس أمة فأمما.

يقول الله الحكيم الخبير في سورة البقرة، الآية: 213: **﴿كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه، من بعد ما جاءتهم البينات، بغيا بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.**

وقد وردت كلمة «أمة» مفردة وجمعا في القرآن الكريم اثنتين وستين (62) مرة، وفي جميعها لم تخرج دلالتها على اعتبار الناس جماعات إلا في مرة واحدة، كانت دلالتها على غير البشر.

يقول الله تعالى في سورة الأنعام، الآية: 33:

﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾.

وأخرى جمعت فيها الآية بين الإنس والجن، فقال تعالى في سورة الأعراف، الآية: 33:

﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار، كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾.

وفي الأولى: تشبيه لغير البشر من الحيوان بالبشر في أنهم جماعات، وهو تشبيه وجهه أن جماعات الدواب والطير تسبح كما يسبح المؤمنون من الناس، وتنتظم كما ينتظم الناس على أشكال من التجمع، قوامه التعاون على تحقيق المصالح المشتركة، وحفظ الوجود النوعي، وإن بنسب متفاوتة من التعاون والتكاثف.

وفي الثانية: بيان أن الجن كالإنس في الافتراق إلى جماعات منذ ابتداء الرسالات السماوية إلى يوم البعث، افتراقا يتشاكلون به مع الإنس في الصياغة الاجتماعية، وما ترتب عنها من تغاير في الاستجابة لشريعة الله، والإعراض عنها، تغايرا متماثلا جمعهم جميعا بعد البعث في مصير واحد.

على أن القرآن الكريم ميز بين افتراق الناس نتيجة لموقفهم من الرسالات السماوية، وافتراقهم، نتيجة لتجمعات بدائية ناشئة عن مصالح محدودة، أو اعتبارات عنصرية.

فعبر عن الافتراق الأول «بالأمة» فردا وجمعا، وعن الافتراق الثاني بـ: «القوم» فردا وجمعا أيضا. وورد فيه التعبير بـ: «القوم» على اختلاف صيغه اثنتين وثمانين وثلاث مائة مرة (382).

وصيغة أخرى استعملها القرآن الكريم مرة واحدة صيغة «الشعوب والقبائل». وقد تكون لكلمة «شعوب» دلالة على الموقع، أما كلمة «قبائل» فلا دلالة لها غير العرقية. واقترانهما في جملة واحدة في القرآن الكريم يصرف كلمة «شعوب» عن الدلالة على الموقع، أو يضعفها فيها.

يقول الله تعالى في سورة الحجرات، الآية: 13:

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وجلي أن التعارف الذي هو من الحكمة في جعل الناس قبائل وشعوبا(2) ليس للمواقع، وآية ذلك، أن الوصف بالكرم

---

2) الشعب في اصطلاحهم هو الحد «الجذم» الكبير الذي تتفرع منه القبائل. نقل ابن منظور في «لسان العرب» ج 1، ص: 500/501، عن ابن الكلبي عن أبيه قوله: الشعب أكبر من القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، وعن ابن بري قوله: الصحيح في هذا ما رتبه الزبير ابن بكار وهو الشعب، ثم القبيلة ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ ثم الفصيلة، وعن أبي أسامة قوله: هذه الطبقات على ترتيب خلق الإنسان، فالشعب أعظمها مشتق من شعب الرأس، ثم القبيلة من قبيلة الرأس لاجتماعها، ثم العمارة من الصدر، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة وهي الساق. وانظر «مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنى ج 2، ص: 220، و«تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة ص: 416، و«غريب القرآن وتفسيره» لليزيدي ص: 343/344.

المنبثق عن التقوى لا يمكن بحال أن يكون للموقع.

فوضح من كل ما سلف أن الإسلام لا يتعامل مع الأرض، وإنما يتعامل مع الناس، وأن تكييف العلاقة بين المسلمين وغيرهم قائمة في شريعة الله على الاعتبارات الاجتماعية من حيث موقف كل جماعة من شريعة الله، ومن الدعاة إليها. وهذا الملحظ دقيق بعيد المدى، مناطه أن ما يمسى بـ «السيادة» في الدساتير والقوانين الوضعية لا وجود له في الاعتبار الإسلامي، فالسيادة لله وحده، والمجتمع الإسلامي عليه تطبيق مقتضياتها داخله، والعمل على تطبيقها في الآخرين، بدعوتهم إلى شريعته ما استطاع، وبإلزامهم بها عند الاضطرار.

2 ـ وتحرير هذه المسألة ضروري لاجتلاء التكييف الإسلامي للعلاقة بين المسلمين وغيرهم، ذلك بأن مصدر هذه العلاقة في الاعتبار الإسلامي ليس هو التنازع على السيادة، وإنما هو المواجهة بين الدعوة إلى شريعة الله، والمناهضة لها أو الصدوف عنها، إما اعتصاما بشريعة منسوخة أو محرفة كانت ذات يوم شريعة الله قبل أن يطرأ عليها التحريف، أو يلغيها النسخ، كما هو شأن اليهود والنصارى والصائبة، إن كانوا ينتسبون إلى أثارة من شريعة إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ بزعمهم، أو يدينون بأمشاج من شرائع سابقة اختاروها لا سيما من التوراة والإنجيل، فقالوا: «أصبنا دينا» كما يقول بعض مؤرخي العقائد.

وإما تشبثا بإرث من الوثنية ـ على اختلاف ألوانها وطقوسها ـ تناقله الأبناء عن الآباء، حتى أصبح نمطا مكينا من تقاليد متناقليه وعاداتهم التي يعتدونها جزءا أصيلا من هويتهم.

والدعوة إلى شريعة الله ليست الإرغام فيها، وإنما هي الإقناع بها، وسبيل الإقناع مخاطبة المواجد والمدارك. وجلي، أن العنف ليس هو الوسيلة لمخاطبة المواجد والمدارك، إنما وسيلتها البيان والمحاجة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن، فالإنسان مفطور على النفرة من أي شيء يشعره بالهيمنة عليه، والإخضاع له، وعلى التجاوب ـ غالبا ـ مع ما يبدو له متجانسا مع رغباته، أو متسقا مع مصالحه، أو متفقا مع مقاصده. وليس من طبيعة التشريع الإسلامي المغالبة والقهر إلا أن يضطر اضطرارا، إنما طبيعته البيان والإقناع.

وهذه الحقيقة هي القاعدة المثلى لما يتداوله الناس، إذ يعالجون أمر العلاقة بين المسلمين وغيرهم من القول بأن السلام هو الأساس الإسلامي لها.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة، الآية: 208:

﴿يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين﴾.

ويقول في سورة النساء، الآية: 94:

﴿يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمنا، تبتغون عرض الحياة الدنيا، فعند الله مغانم كثيرة، كذلك كنتم من قبل، فمن الله عليكم، فتبينوا، إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾.

ومن عجائب النظم القرآني، وبدائع بيان المناط في دلالاته، أن جاءت الآية الأولى بعد بيان مبيحات القتال في سبيل الله، وموجباته، وآدابه، وحدوده، في قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة، الآية: 190:

﴿وقاتلوا في سبيل الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾، والآيات الخمس التي أعقبتها. على حين جاءت الآية الثانية عقب بيان حكم القتل عمدا أو خطأ(3)، سواء كان من مسلم لمسلم، أو منه لغير المسلم إذا كان معاهدا، ومن قبلها آيات فيها تشريع لما ينبغي أن يكون عليه موقف المسلمين من المنافقين، ثم موقفهم من بعض المعاهدين، ومن المحايدين(4)، وسبقتها آيات تتضمن إرشادا لما ينبغي أن يكون عليه المسلمون في الحرب من الحذر الداخلي والخارجي، الحذر الداخلي من الاستغلاليين ضعاف النفوس، الذين ينتظرون نتيجة الحرب، لينضموا إلى إحدى الطائفتين المحاربتين، يتوسمون لها النصر. الحذر الخارجي من التفرق والتخاذل، ومن اتخاذ ما يقتضيه كل حالة من حالات الحرب، كما تتضمن التمييز بين من يقاتل في سبيل الله صادقا وبين غيرهم، ثم البيان لجانب من موجبات القتال(5). ليعقبها عشر آيات(6) تتضمن ألوانا من التشريع والإرشاد وثيقة الاتصال بالحرب، ومصاحباته، ومعقباته.

ويتجلى الإبداع العجيب في دلالة هذا النظم الإلهي المعجز على مناط التشريع في الآيتين في أن الإذن بالقتال، وإيضاح ملابساته، ومصاحباته، وموجباته، والتشريع لمقتضيات كل ذلك، لا يخرج عن أن يكون استثناء، فهو إذن وليس بأمر، وحتى في أحوال يتطور فيها إلى أمر لا

3) الآيتان رقم: 92 و93.

4) الآيات من رقم: 88 إلى 91.

5) الآيات من رقم: 71 إلى 83.

6) الآيات من رقم: 95 إلى 105.

يكون أمرا أساسيا ابتدائيا، وإنما هو أمر متفرع أوجبته ظروف قبل أن يوجبه الشرع.

على حين أن الأمر بالدخول في السلم، والنهي عن القول لمن يلقي السلام «لست مؤمنا»، وهو نهي في معنى الأمر بأن لا يقولوا له ذلك، ابتدائي أساسي، أو كما يقول تعبير الأصوليين: هو القاعدة، والآخر استثناء.

ولا عبرة بمقولات بعض الفقهاء والمتفقهة، بل وبعض أصحاب التأويل من أن الأمر بالقتال ناسخ لكل أو بعض ما يخالفه مما جاء في القرآن من الأمر بالمسالمة، ذلك بأن ما اعتاده هؤلاء من الالتجاء إلى دعوى النسخ إذا قصرت مداركهم، أو قصروا عن التوفيق بين دلالات الآيات، أو النصوص الحديثية التي تبدو كما لو كانت غير متسقة، لو قبلناها منهم لتعطلت آيات وأحاديث شتى، فأصبحت في حكم الملغاة، وانحصر شأنها في أنها تمثل وضعا تاريخيا، ولو التبس علينا الكثير العجيب المعجز من أسرار التشريع، وحقائقه، ومناطه، مما يترتب عن التباسه الوقوع في متاهات عمياء تضل بنا عن طرائق التوفيق بين نصوص الشرع، ومقتضيات كل طور، وكل وضع من أوضاع الحياة الإنسانية ضلة قد تبرز التشريع الإسلامي كما لو كان غير صالح للتجاوب مع ما صار إليه الناس من أطوار وأوضاع، وما هم صائرون إليه ما بقيت الحياة الدنيا دائبة على التغير والتطور.

ومعالم العلاقات السلمية بين المسلمين وغيرهم ممن لم يحاربهم تتمثل فيما يلي:

1 - التمييز بين التعامل أو التعايش الذي يقتضيه المواطنة أو المجاورة، وقد تضطر إليه مصالح متبادلة، أو ظروف عامة، أو أوضاع حضارية، وبين السكون النفسي، والركون الوجداني، والاطمئنان القلبي.

يقول سبحانه وتعالى في سورة آل عمران، الآية: 28:

﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة، ويحذركم الله نفسه، وإلى الله المصير﴾.

ويقول في سورة المائدة، الآيتان: 51 و52:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده، فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾.

ثم يقول في الآيتين: 57 و58:

﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزؤا ولعبا، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

على أن القرآن الكريم يصنف العداوة الطبيعية المانعة من السكون النفسي، والركون الوجداني، والاطمئنان القلبي، بين المسلمين وغيرهم صنفين، فيقول في السورة نفسها الآيات من رقم 82 إلى 87:

﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾.

ثم يزيد بيانا لمدى وأسباب ما بين المسلمين والكفار الوثنيين من تباعد وتحاجز نفسي ليس مصدره الاختلاف الديني فحسب، وإنما ـ أيضا ـ ما ترتب عنه من تصرفات قام بها أو يتربص للقيام بها أولئك الكفار، إيذاء للمسلمين، وانتقاما منهم، فيقول في الآيات الأولى من سورة الممتحنة:

﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم، إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرون إليهم بالمودة، وأنا أعلم بما أخفيتم، وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل، إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء، وودوا لو تكفرون﴾.

وبعد أربع آيات أخر تضمنت إرشادا للمسلمين إلى ما ينبغي أن تكون أنفسهم مرتاضة متهيئة له في موقفهم ممن قد يكونون من ذوي أرحامهم، أو ممن تصلهم بهم أسباب قد تغري بالمودة بينهم، رسم القرآن الكريم معلما بينا ميز به بين النهي عن الموادة والموالاة، وبين إباحة التعامل والمحاسنة، كما صنف أولئك

الكفار إلى فريقين: مسالم ومحارب، فقال في الآيتين رقم 8 و9:

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين، وأخرجوكم من دياركم، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾.

وهذا التصنيف القرآني لغير المسلمين في مواجهة المسلمين يبرز معيارين من معايير التصنيف، أولهما: المعيار الديني وهو ما تواضعت الأعراف الفقهية على استنباط التشريعات السياسية والاجتماعية طبقا له، فمايزت في الأحكام بين أهل الكتاب وغيرهم، ثم مايزت هؤلاء بين من له علاقة ما بالكتب السماوية، ومن لا علاقة له بها، ثم مايزت في هذه الطائفة الأخيرة بين من بلغ مستوى حضاريا من التفكير والحياة ومن لا يزال على بدائيته.

ولئن كان القرآن الكريم وضع أهل الكتاب والصابئين فيما يشبه أن يكون مرتبة واحدة في كل من الآية: 62 من سورة البقرة من قول الله تبارك وتعالى:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابين، من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحا، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

والآية: 69 من سورة المائدة من قوله تعالى:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحا، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. فإنه لم يذكر المجوس في هاتين الآيتين، ولذلك أشكل أمرهم على عمر - رضي الله عنه - لولا أن عبد الرحمان بن عوف - رضي الله عنه - ذكر له أن رسول الله ﷺ قال فيهم: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»(7). على أن أخذ الجزية منهم لم يجعلهم من صنف أهل الكتاب، إذ أن ذبائحهم ومناكحتهم حرام عند الجمهور، خلافا لما هو الشأن في ذبائح ومناكحة أهل الكتاب، فهما مباحان بنص الكتاب.

والذي يعنينا من هذا الأمر هو الإلماع إلى دقة التحديد القرآني لأصناف الناس تحديدا ترتب عنه اختلاف مستويات

7) الحديث أخرجه مالك في «الموطأ» ص: 226. ح: وساق له ابن عبد البر في «التمهيد» ج 2، ص: 114/115، عدة أسانيد كلها عن طريق مالك. كما أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ج 6، ص: 68/69. ح: 10025. وأخرجه غير هؤلاء، لكنه منقطع في جميع طرقه. غير أن أحاديث متصلة صحيحة في معناه تعضده، كما أن رجاله ثقات، وليس هذا مجال البسط في هذا الشأن.

العلاقات بين المسلمين، وبين كل صنف منهم.

فالتسوية بين أهل الكتاب والمجوس في بعض المعاملات دون بعض تجعل من المجوس صنفا مستقلا أدنى درجة من أهل الكتاب، وأعلى درجة من الوثنيين، إذ لا يجوز للمسلمين إبقاء الوثنيين على وثنيتهم ما قدروا على قتالهم، إلا كمعاهدين في حال اقتضاء المصلحة العامة قبول مواثقتهم كما سيأتي في موضعه، أما أن يسبغوا عليهم حمايتهم، فيدخلوهم في ذمتهم، ويأخذوا منهم الجزية لو سألوا ذلك، وقد غلبوا تملصا من الإسلام، فهذا ما لا سبيل إليه، لأن القرآن الكريم حكم في تكييف العلاقة السلمية بين المسلمين وغيرهم ثلاثة معايير:

الأول: معيار وجود نوع ما من العلاقة الدينية بين المسلمين ومن يؤمنون بالله وبعض كتبه، وإن كان إيمانا مدخولا أو منحرفا.

والثاني: معيار المستوى الحضاري فكريا سواء كان مستمدا من بعض الكتب السماوية أو غير مستمد(8) كما هو شأن المجوس.

ثالثا: معيار البدائية المطلقة كما هو شأن الوثنيين، وإن كانت في بعضهم أثارة من الإيمان بالله قد تكون من تأثير بعض الكتب السماوية، كأولئك الذين يعتبرون الأصنام شركاء لله، أو شفعاء إليه، بيد أن وثنيتهم ناتجة عن انخفاض مستواهم العقلي والعقيدي انخفاضا يتمثل في تأليه الأحجار، أو الأشجار، أو الحيوانات، أو بعض الأجرام السماوية أو بعض ما يصنعونه بأيديهم على أشكال مختلفة، وذلك ما يبعد بهم عن المستوى الحضاري الفكري للمجوس، فضلا عن مستوى أهل الكتاب الذين يصلهم إيمانهم بالكتب المساوية، فيسمو بعقولهم عن تلك البدائية السفلى.

ومناط هذا التحكيم القرآني ـ والله أعلم بسرائر شريعته ـ أن بين المسلمين وأهل الكتاب قاسما مشتركا ـ وإن كان أدنى ـ من الإيمان يجعل تأثير التعايش في أهل الكتاب محتملا، وإمكان تفهمهم للإسلام

8) اختلفوا في المجوس، فادعى البعض أنهم يستمدون من كتاب سماوي، وهو ادعاء لا نعلم له أساسا إلا ما نركن إليه من أن مختلف الفلسفات من يونانية وفارسية وهندية وصينية ليست من ابتكار البشر، وإنما هي بقايا أو أثارات مما عرفته الإنسانية في شتى مراحل أطوارها منذ هبط آدم ـ عليه السلام ـ إلى الأرض من رسالات سماوية، إن تكن انقرضت معالمها، فقد تحولت آثارها في نفوس الناس، وتطورت مع تعاقب الأجيال إلى تهويمات فكرية وعقلية، أفرزت تلك الفلسفات. وعلى هذا الاعتبار ففلسفة زرادشت وما سبقها وأفرزها في فارس مما نشأت عنه المجوسية لها أصل من التعاليم السماوية، وإن يكن مطموس المعالم.

واقتناعهم به وتحولهم إليه نتيجة له قريبا، كما أن المستوى الحضاري الفكري الذي ارتفع بالمسلمين إلى أعلى باتصالهم الوثيقي بالوحي الإلهي، الناشئ عن إيمانهم الصادق، المتحكم في مواجدهم ومداركهم وسلوكهم، والذي انتشل المجوس من درك الوثنية الساذجة بما امتازوا به من خصائص فكرية، أفرزتها أثارة من كتب سماوية، أو من فلسفات أنتجتها العقول، اقتضى نوعا من العلاقة بين المجوس والمسلمين دون مستوى علاقة أهل الكتاب، وفوق مستوى علاقة الوثنيين بهم. فالإسلام دين عقل وفكر كما هو دين عقيدة. وتصور ارتقاء من لهم مستوى فكري معين إلى فهمه وإدراك حقائقه ومقاصده، ثم التحول إليه نتيجة لذلك تصور على درجة من المعقولية، في حين أن تصور تحول الوثنيين إلى الإسلام نتيجة إدراك عقلي لخصائصه أبعد من ذلك بكثير، إلا أن تضطرهم الغلبة اضطرارا إلى الخضوع له، ثم معايشة أهله لأمد تتفتح خلاله مداركهم، وترقى وتتطور، بحيث تستطيع وعي ما كان متعذرا عليهم وعيه ماداموا مرتبطين وجدانيا وعقليا بتأليه المخلوقات تأليها كاملا أو جزئيا. ولعل هذا من سرائر ما ترشده إليه الآية الكريمة رقمة: 14 من سورة الحجرات، وهي قوله تعالى:

﴿قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾.

وتأمل جيدا قوله تعالى:

﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وما تعنيه جملة «ولما» من دلالات الزمان.

على أننا نرى أن التمييز القرآني بين المجوس والوثنيين يفتح لنا مجالا للتمييز بين من وثنيتهم ناتجة عن بدائية حضارية وفكرية، ومن وثنيتهم ناتجة عن انحراف في الإدراك والتفكير بما أخذوا به من فلسفات مادية، وطرائق في تفهم وتقدير بعض الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وابتغاء وسائل وسبل إصلاحها أو تغييرها، كالشيوعيين والعلمانيين، إذ يتراءى لنا أن هاتين الطائفتين لا يمكن التعامل معها بنفس القواعد والمعايير التي تحكم التعامل مع الوثنيين البدائيين، وإنما الذي يحكم التعامل معها هو المعايير والقواعد التي تحكم التعامل مع المجوس، ذلك إذا لم يكونوا ممن خلطوا بين العلمانية أو الشيوعية وبين الإيمان بالتوراة أو الإنجيل، إذ أن هؤلاء لا يمكن اعتبارهم من غير أهل الكتاب، فهم ما يزالون من أهل الكتاب وإن أوغلوا في الانحراف إيغالا ابتعد بهم عن موقع المتمسكين بكتبهم بعد أن أدخلوا عليها ما أدخلوه من تحريف.

والذي نستخلصه من هذا البيان للتصنيف الإسلامي لغير المسليمن في مواجهة المسلمين هو أن التعايش على اختلاف درجاته يجب أن يكون بعيدا عن التجاوب الوجداني، فمجال التعامل السلمي بين المسلمين وغيرهم تعاملا ماديا إنما تضبطه اعتبارات مصالح المسلمين، وهذا يعني وجوب حصر التعامل بين المسلمين وغيرهم في نطاق المصالح والمحاجزة بينه وبين التجاوب النفسي أو التساوق العقلي، وليس معنى المحاجزة دون التساوق العقلي منع المسلمين من الاقتباس من غيرهم ما اهتدوا إليه من معارف في شؤون الدنيا، وإنما معناه إخضاع أي اقتباس أو تأثر لمصفاة الضوابط العقيدية والمناطية التي رسمها الشرع الإسلامي، وأن لا يكون الاقتباس تقبلا بدون تمحيص. فقد اقتبس عمر – رضي الله عنه – من غير المسلمين كثيرا من النظم المالية والإدارية، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة – رضوان الله عليهم – وجرى على ذلك من بعده من الخلفاء والملوك، ولم ينكر عليهم أحد من التابعين أو أئمة الاجتهاد ما اقتبسوه مما لم يتنافر مع طبيعة الشرع الإسلامي نصا وروحا.

أما المحاجزة دون التجاوب النفسي فلا سبيل فيها إلى أي استثناء، لما نصت عليه الآيات الكريمة التي سقناها آنفا من سورة آل عمران، وسورة المائدة، وسورة الممتحنة، فتحريم اتخاذ غير المسلمين أولياء تحريم حاسم لا سبيل فيه إلى أي تأويل، ويدخل فيه تحريم كل ما من شأنه إحداث شعور في نفوس المسلمين بأي نوع من أنواع التقارب، أو الارتباط النفسي، وإن بدا أن فيه مصلحة لهم وللإسلام، ذلك بأن ما ينجر عن التجاوب النفسي مع غير المسلمين من السكون والركون والاطمئنان ينطوي على مفاسد ترجح كل مصلحة، أدناها الشعور بالتكامل، أو التكافل مع غير المسلمين، وهو شعور يساوي – وإن في نطاق ضيق – بين المسلمين وغير المسلمين، وجدانيا وماديا، وذلك ما ينطوي عنه التعبير القرآني البديع بـ: «الأولياء».

وحوصلة القول أن الشراكة بين المسلمين وغيرهم شراكة تعامل وتبادل منافع في نطاق ما تقتضيه وتضطر إليه مصالح المسلمين مباحة، وقد تكون في بعض الأحيان مندوبا إليها على أن تظل شراكة مادية، أما أن تتحول إلى «ولاية» فذلك حرام بالنص القرآني الحاسم.

على أن تحريمه جاء في القرآن الكريم على درجتين بينتهما آية سورة المائدة رقم: 82، إذ ميزت بين مواجد اليهود والمشركين ومواجد النصارى في مواجهة المسلمين، فأبرزت شدة عداوة اليهود والمشركين

للمسلمين، وجعلتهما في درجة واحدة، في حين وصفت النصارى بأنهم «أقرب مودة»، ولم تصفهم بالمودة كاملة.

فتأمل جيدا قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى**﴾.

والتعبير بـ: «أقربهم» فيه إلماع بديع إلى نفي المودة عنهم، ووصف عداوتهم لهم بأنها أخف من عداوة غيرهم، وفي هذا تحذير بليغ من الاغترار بمظهر القرب هذا، واعتباره ودا، مع أنه مجرد قناع يخفي عداوة أخف من عداوة الآخرين.

ولذلك جاء في القرآن الكريم تحذير حاسم من موادة غير المسلمين، وإن كانوا من ذوي أرحامهم.

يقول الله سبحانه وتعالى في الآية الأخيرة من سورة المجادلة: 22:

﴿**لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه**﴾.

فبين سبحانه وتعالى أن نفي الإيمان عمن يواد من حاد الله ورسوله سببه أن المؤمنين ﴿**كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه**﴾، وأن غيرهم مجردون من هاتين الميزتين، ثم إن المؤمنين هم (حزب الله) وهم المفلحون، أما غيرهم بحكم مفهوم المخالفة فهم حزب الشيطان، الذين جاء ذكرهم بهذه الصفة في هذه السورة نفسها، الآية: 20: فقال سبحانه وتعالى:

﴿**استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون**﴾.

والمناط من هذه المحاجزة النفسية بين المسلمين وغيرهم - وإن كانوا من النصارى الذين هم أقرب إليهم مودة - هو منع السكون والركون الذي يعني الاطمئنان المطلق المؤدي إلى الاتساق، إن لم يكن إلى الاندماج.

أما الثاني مما تتميز به معالم العلاقات السلمية بين المسلمين وغيرهم فهو ضبط قواعد ومبيحات التعامل مع من لا يتعايش معهم، مواطنا أو جارا، وإنما يتعاملون معه بضرورة المصالح المشتركة، أو الظروف العامة المتحكمة في العلاقات بين الأمم والجماعات في مختلف أنحاء العالم مثل قواعد القانون الدولي العام.

الرباط - محمد الحاج الناصر

منهج الإمام الخطابي في كتابه أعلام السنن

للدكتور يوسف الكتاني
رئيس شعبة التفسير والسنة والأصول
بكلية الشريعة - جامعة القرويين - فاس

يمكننا أن نستشف منهج الإمام الخطابي في كتابه «أعلام السنن» من أمرين :

1) من مقدمته الرائعة المركزة التي بسط فيها الأسباب والدواعي التي دفعته إلى وضع كتابه في شرح أحاديث الجامع الصحيح لأبي عبد الله البخاري.

2) من خلال الطريقة التي اتبعها في شرح صحيح البخاري، والأسلوب الذي تناول به الشرح والتبيين، مما يقتضي بيانه بتفصيل.

فقد تضمنت مقدمة كتاب «أعلام السنن» بعد حمد الله المنعم المجزل ذي المن العظيم، وعلى نعمة الخلق، وإرسال الرسل، وكتابه القيم الذي أوضح مناهج الحق، وشرع الأحكام، وبين الحلال والحرام، واقتص الأخبار لتكون موعظة واعتبارا، وإرسال النبي الكريم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لهداية الخلق، وتعليم الكتاب الذي ينبغي اتباعه، وتصديقه وطاعته والرضا بأحكامه، تضمنت بسط أسباب وضعه للكتاب ودواعيه نذكر منها:

— رغبة إخوانه في «بلخ» بعد إملائه لكتاب» «معالم السنن» أن يشرح لهم صحيح الإمام البخاري، ويفسر المشكل من أحاديثه، ويبين الغامض من معانيها

— استصعابه لمثل هذا العمل، لجلالة كتاب الجامع، وسعة موضوعاته، واستيعابه لأحاديث الفقه، والأحكام، والسنن والآداب، ومحاسن الأخلاق.

— نضوب العلم وظهور الجهل في ذلك الـزمـان، وكثرة أهـل البـدع والانحـراف، وميلهم عـن الكتاب والسنـة إلى مذاهبهـم وأغـراضهم، وتـركهم البحـث عن معـاني السنة ولطائف علومها.

— التحامل على أهـل الحديث، وثلبهم، والوقيعة فيهم، ممـا أدى إلى قلة من يعنى بعلم الحديث، ويبلغ فيه المكانة الواجبة.

— الإستجابـة لطلب إخـوانه مـن باب النصيحـة للمسلمين بتفسير المشكـل مـن أحاديـث الجامع الصحيح، وفتق معـانيه، ليكـون تبصـرة لأهـل الحق، وحجـة على أهــل الباطــل، وذخـيــرة لغابــر الـزمان.

وحتى لا يقع تكرار مـا تناوله في كتاب المعالم، لم يشرح جميـع أحاديث صحيح البخاري، وإنما قصر شرحه على الأحاديث التي لم يتنـاولها في كتابه السابـق، وهكذا نجده تنـاول بالشرح أغلـب كتب الجامـع الصحيح، مقتصرا على بعـض الأبواب مـن كل كتاب، فإذا تعددت روايات الباب وكان مآلها واحـدا، اقتصر فيه على شرح حـديث واحد، وكـأنه بـذلك شرح جميـع أحاديـث الباب، كما فعـل مثلا في كتاب الأضـاحي، وأحيانا يعمد إلى شرح حديثين أو أكثر من كل بـاب حسب مـا يتراءى له، ويشير إلى ذلك بقـوله: «ومـن باب كـذا» وربما يقوم بشرح أحاديث الباب كلـه إذا كانت في ذلك فائدة.

وعنـدمـا يبـدأ شرح كتـاب مـن كتب البخـــاري، يـذكــره قبل بـداية الشــرح ويعنــون باسمــه، وكثـيرا ما لا يفعـل ذلـك، كما فعـل مثـلا عندمـا بدأ شــرح كتاب الأحكــام لـم يــذكـر عنــوانه ولا إسمــه.

وطـريقتـه في الشرح: أن يـأتي بنـص الحديث كما هـو ثابت عـن الرسـول عليه الصـلاة والسـلام، ثم يبدأ شرح المعـاني اللغويـة لألفاظ الحديـث وكلماته، خـاصة الغريب منها، فيستعرض معانيها المتعددة، ويختــار منهـا المعنـى المنـاسـب لسيـاق الحديــث ومعنـاه، رادا على مــن سبقــه بشرحها، أو اختــار معنى آخر لايـراه هو، وذلك كما فعل في شرح كلمة «الضحك» في الحديـث بالـرضا، لأنـه أقرب إلى المعنـى المقصـود، مخالفـا مـاذهـب إليـه الإمام البخـاري في شرحـه للضحـك بـالـرحمة، معقبا عليه ومتمما(1)، أو كما فعل عنـدما استعرض المعـاني المختلفة لكلمـة: «الجد» وهي الغنـى والحظ والعظمة، ليستخلـص منها المعنـى الصالـح والمناسـب للآيـة أو الحديث.(2)

1) أنظر اللوحة 118 من نسخة مكتبة فيض الله.

2) أنظر لوحة 88.

وكما فعل في شرحه للآية الكريمة «**يوم يكشف عن ساق**»(3) باستعراضه لما قيل فيها من شروح وأقوال لم يتفق مع أصحابها، ولم يوافقهم على ماذهبوا إليه من معنى، مؤكدا أنها تفيد التجلي لهم، وكشف الحجب، خلافا لمن قال: بأن معنى الساق كناية عن الشدة والكرب أو هول النفس.(4)

وهذا هو صنيعه دائما في شرحه عندما تعرض مسألة في ألفاظ القرآن أو الحديث، وتتشعب فيها الأقوال للوصول إلى معناها، فإنه يتناول كل الأقوال فيها ويناقشها جميعا، وينتهي إلى تغليب ما يراه صوابا منها، أو يأتي بفهمه الخاص لها، ويرجحه على فهوم السابقين، كما فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون**﴾(5)، معقبا بعد بيان شرحه لها، ورده على المخالفين له في شرحها، قائلا في حسم: «هذا باب لايفهمه إلا أرباب القلوب»(6) ولذلك تجده يكثر من الاستدلال بالقرآن للاحتجاج على ماذهب إليه من لغة أو معنى، وأحيانا يشرح أهم الكلمات اللغوية ويعرفها، مكتفيا بذلك في شرح الحديث، دون التطرق إلى معانيه لوضوحها من خلال ألفاظ الحديث وعباراته(7).

ومما يؤكد إمامة الخطابي في اللغة، أنه عندما يبدأ شرح ألفاظ الحديث لايقف عند المعنى أو المعاني اللغوية الظاهرة، بل يلم بالفروق الدقيقة لألفاظ الحديث، ليستخلص منها المعنى المراد من لفظ الحديث، ومن ثم إلى شرحه شرحا وافيا دقيقا، وذلك كما فعل في شرحه لكلمة «الأصهار» ذاكرا أن الأحماء هم الأصهار من قبل الرجل، والأختان هم الأصهار من قبل المرأة، ويجمع الفريقين الأصهار.(8)

وكما فعل في شرحه لألفاظ «القسط» والكست والنبذة، وفي شرح القتَّات بالنمام، ذاكرا أن هناك فرقا دقيقا بين النمام والقتات والقساس.(9)

وأحيانا ينقل رأي علماء اللغة في تفسير ألفاظ الحديث وشرحها، ويغيب عليهم عدم استعراضهم لمعانيها، وذلك كما فعل في شرح كلمتي «العجر» و«البجر»، عندما نقل

---

3) سورة القلم ـ الآية 42.
4) راجع لوحة 320.
5) سورة الطور ـ الآية 35.
6) أنظر اللوحة 317.
7) راجع اللوحة 186.
8) أنظر اللوحة 335.
9) راجع اللوحة 364.

شرح أبي عبيد لها ولم يستصوبه، وأتى بالمعنى المراد للفظين، معقبا على ذلك بخبر الأصمعي عندما فسرها بمعنى: الهموم والأحزان، متتبعا شرح أبي عبيد لبقية ألفاظ الحديث وغيره من الشراح، مصوبا لها، ورادا عليهم بإيراد الشروح والتفسيرات التي يراها مناسبة لمقصود الحديث ومعناه، بأنها تعني العيوب الباطنة والأسرار الكامنة(10).

أو كما فعل عند شرحه الدقيق لكلمة: «اللمم» بأن معناها التمني باللسان ورؤية العين.(11)

أو عند شرحه لكلمة «الرجز» بالعذاب، ليستخلص أن المعنى المقصود منها هو: أن الرجز ما يؤدي إلى العذاب.(12)

أو عند شرحه للنذير العريان شرحا دقيقا متميزا بقوله: هو الفصيح،(13).

أو عندما فرق بين أقسام الأنساب، إلى نسب ولادي، وبلادي، واعتقادي، وصناعي.(14)

ومن بديع منهجه في الشرح، أنه لا يكتفي باستعراض المعاني اللغوية المتعددة للألفاظ، واختيار المعنى الملائم لها وفقا لمفهوم الحديث ومقاصده، بل يستعرض شروح العلماء قبله، وفهومهم وتفسيرهم لمعاني الحديث، ويرد عليهم، ويصوب ما يراه خطأ فيها، مناقشا ومعللا وموضحا، ثم يعقب على ذلك بالمعنى الذي يراه مناسبا ومتفقا مع موضوع الحديث، وذلك كما فعل في شرحه لحديث: «كل شراب أسكر فهو حرام»(15)، رادا ومفندا ما ذهب إليه الشراح، من أن معنى الشراب المسكر هو الجزء الأخير من الشراب الذي فيه الإسكار، معقبا على ذلك في حزم بقوله: «إن ذلك مستحيل» أي ما ذهبوا إليه من معنى، لأنه ليس من المتعارف أن يكون فعل الجزء في الشيء أكثر من فعل كله، فهذا محال.(16)

وكما في رده على الأعمش في شرحه لحديث السرقة، وتصويبه لفهم الحديث والشرح المناسب له(17).

---

10) راجع اللوحتين 328 و 329.
11) راجع اللوحة 186.
12) أنظر اللوحة 322.
13) أنظر اللوحة 374.
14) أنظر اللوحة 290.
15) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وأحمد في المسند، وأصحاب السنن الأربعة.
16) راجع اللوحة 347.
17) انظر اللوحة 381.

ومن منهجه في الشرح أيضا، أنه قد يكتفي بذكر الحديث دون شرح أو تعليق، أو بيان لوضوحه كما فعل في حديث شرب العسل للشفاء.(18)

وقد يلجأ إلى شرح معنى الحديث بناء على حديث آخر، كما فعل في شرحه لحديث «أبردوها بالماء» أي الحمى، ذاكرا المقصود من إبراد الحمى ومعناه، وهو التصدق بالماء عن المريض ليشفيه الله بفضلها، مصداقا لما روي من الحديث النبوي:

«إن أفضل الصدقة سقي الماء».(19)

وقد يذكر حديثين متتابعين مرة واحدة، ثم يشرحهما الواحد تلو الآخر، كما فعل في شرحه لحديثي الواصلة والمستوصلة.(20)

أو يعمد إلى ضم حديثين ويشرحهما معا شرحا واحدا، كما فعل في شرحه لحديث: «لاتسموا الكرم عنبا»(21).

وقد يجمع حديثين إذا كان سندهما واحدا، ويقوم بشرحهما معا، كما فعل في كتاب اللباس.

وعندما يجد حديثا في صحيح مسلم أوفي غيره من كتب الحديث لم يخرجه البخاري في صحيحه فإنه يبحث عن سبب ذلك، وعلته، ويذكره، كما فعل في حديث النصيحة، فقد علل عدم إخراج البخاري له، لكونه مرويا عن تميم الداري، عن طريق سهيل بن أبي صالح، وهو ليس على شرطه،(22) إلا أن الخطابي يورده مسندا لكثرة فوائده.

ويتميز منهج الخطابي في شرحه بأنه لايكتفي بإيراد المعاني المختلفة لألفاظ الحديث، وترجيح المعنى الذي يراه، بل يستعرض الأقوال ويناقشها مناقشة علمية دقيقة، ويرد على أصحابها بقوة، كما فعل في رده على الجاحظ والموصلي فيما ذهبا إليه من شرح حديث «اختلاف أمتي رحمة»، وتخطيئهم واعتبارهم بأنهم ليسوا بأصحاب الحديث وأهله.

وكما ناقش ورَدَّ على الإمام الشافعي في تحديده لمدة قصر الصلاة بأربعة أيام لعلة الخوف، مستدلا بأن النبي ﷺ أقام بمكة بعد الفتح يقصر سبعة عشر يوما (23)، ومستدلا أيضا بحديث ابن عباس، أن من السنة القصر تسعة عشر يوما»(24).

أو يخرج من مناقشة لمعنى الحديث ومخالفته لرأي من سبقوه، بتبيين الخطإ،

18) انظر اللوحة 351 رواه أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك.
19) انظر اللوحة 354.
20) أنظر اللوحة 321.
21) راجع اللوحة 368.
22) أنظر اللوحة 19.
23) راجع اللوحة 100.
24) أنظر اللوحة 99.

ورده إلى راوي الحديث، وتفرده به، كما كما فعل مع من عبر عن الله بالشخص، من رواية عبيد الله بن عمرو، عن عبد الملك في الحديث الذي رواه: «لا شخص أغير من الله»، معقبا على ذلك بأن الخطأ من الراوي، وتفرده برواية هذا الحديث دون غيره، أو لأن ذلك التعبير من قبيل التصحيف الذي قد يقع.(25)

بل وأكثر من ذلك، فإنه يعنف على من يناقشهم ويسفه آراءهم البعيدة عن الصواب، ويصفهم «بعوام الفقهاء»، أو «كما يزعمه الجهال» أو «عوام العلماء».(26)

ومن منهجه في الشرح، أن يلجأ إلى استخلاص أن بعض الألفاظ الواردة في بعض الأحاديث، ليس من كلام الرسول، ولا تعتبر من متن الحديث، وإنما هي مضافة وصادرة عن الراوي، كما أشار إلى ذلك عند شرحه لحديث المعراج، حيث ذكر أن بعض ألفاظ الحديث صادرة عن شريك (27).

وكما فعل عندما أكد ضرورة قراءة الفاتحة في الصلاة للإمام والمأموم جهرا وسرا، موضحا بأن حديث ترك المأموم قراءة الفاتحة لم يصح إسناده، ولم يتصل.(28)

وأحيانا يلجأ إلى شرح الحديث بما يخالف ظاهر معنى ألفاظه، بسبب دقته، وتوخيه للمعنى المقصود، والمراد من الحديث كله، وذلك كما فعل في شرحه للحديثين الشريفين: «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة»، و«من ترك الصلاة كفر»، مؤكدا بأن معناهما هو التخويف من أدائه إليه.(29)

ومن بديع منهجه، وكمال نبوغه، ودقة فهمه، أنه كثيرا ما يلجأ إلى استنباط القواعد، وتأصيل الأصول بعد شرحه للحديث، بما لم يسبق إليه، ولم يلحق فيه، وذلك كما فعل في مواضيع كثيرة من شرحه سنحاول تفصيلها في آخر هذا المبحث، تنويها بها وتذكيرا. كما فعل عندما شرح حديث الرقية والطيرة، مستخلصا قاعدة أساسية إثر ذكره حديث: «أن أحد الصحابة رقى لذيغا، وأخذ عليه جعلا، فطيبه له رسول الله ﷺ»، مستخرجا منه القاعدة التالية:

25) أنظر اللوحة 395.
26) أنظر اللوحتين 6 و 13.
27) راجع اللوحتين 397 و 389.
28) أنظر اللوحة 78.
29) انظر اللوحة 81.

«إذا كانت الرقية بالقرآن وأسماء الله فهي مباحة»(30).

ويعتبر أطول شرح للخطابي لأحاديث صحيح البخاري هو شرحه لحديث: «أن النبي ﷺ كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، وله يومئذ تسع نسوة»، إذ استغرق شرحه تسع لوحات مزدوجة من 331 إلى 335.

وقد بلغ ما شرحه الإمام الخطابي من أحاديث الصحيح حوالي ألفا ومائتين وثمانية وثلاثين حديثا.

خصائص ومميزات :

لقد اتبع الإمام الخطابي في كتابه **«أعلام السنن»** أسلوبا فريدا، ونهجا بديعا، توخى فيه السهولة واليسر، واجتناب التعقيد والتطويل، والإطناب والاستطراد، مما ميز شرحه باستعياب الأقوال في المسائل اللغوية والفقهية، ومعاني كلمات الحديث ومتنه، وطبعه بالمناقشة الممتازة والحوار المفيد، لما يستعرضه من الأقوال والنظريات والفهوم والتركيز على ما يختاره منها، وما يراه مناسبا للمعنى المقصود من الحديث، بعد الرد على ما يجده بعيدا عن المعنى من تلك الآراء، والتعليل لرفضه أو قبوله، فإذا لم تعجبه الآراء جميعا، ورآها بعيدة عن معنى الحديث، لجأ إلى شرحه وبيانه الذي يبتكره ويستنطبه من فهمه للحديث، ودافع عنه بقوة وحزم، مستدلا له بالآية أو الحديث، مصرحا بأنه هو المعنى المناسب للحديث، الموافق لقصد الرسول الكريم، وهو يصل إلى هذا بأوجز عبارة وأبلغ أسلوب، مما جعله أحيانا يكتفي بإيراد الحديث كما هو، دون أن يتكلم عنه، لسهولة ألفاظه، ووضوح معناه وأحيانا يقتصر على شرح ألفاظه، وأخرى يكتفي بشرح معنى الحديث في عبارات مختصرة مركزة.

وكل هذا يعتبر عند الخطابي وسيلة وطريقا للوصول إلى ما توخاه من شرحه للحديث، من استنباط أصول وقواعد وأحكام، وما بلغه من اجتهاد في فقه السنة، جعل شرحه متفردا بين جميع شروح الجامع الصحيح على الإطلاق، كما ميزه عن غيره من الشراح بالريادة في هذا الميدان.

ولهذا آثرنا أن نورد مجموعة من تلك القواعد والاستنباطات والفهوم التي ضمنها شرحه، نقلا عن السابقين، أو استنباطا واجتهادا منه النفيس الرائد نذكر منها:

ـ الشيء إذا ضاق اتسع.

***

ـ القياس إذا نازع النص كان ساقطا.

---

30) راجع اللوحة 352.

ـ إذا كان المعنى أوسع من الإسم كان الحكم للمعنى.

***

ـ البرهان أظهر وأبهر.

***

ـ من شرط إجابة الداعي خلو الدعوة من المنكر.(31)

***

ـ إن الحاكم يقطع لمن سرقه.(32)

***

ـ الحديث ثلاثة أقسام : صحيح وحسن وضعيف.(33)

***

ـ النسب أقسام : نسب ولادي ـ نسب بلادي ـ نسب اعتقادي ـ نسب صناعي.

***

□ **حول القرآن :**

ـ جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن قياسا على كونه مهرا في النكاح.(34)

***

ـ جواز بيع المصحف بناء على أخذ الأجرة على قراءة القرآن على المريض مقابل شاة.(35)

***

ـ استحباب تلاوة القرآن على القبر.(36)

***

□ **حول الصلاة :**

ـ تارك الصلاة مقتول.(37)

***

ـ استحباب الجماعة للنوافل كما هي للفرائض.(38)

***

ـ يمكن اتخاذ مصليات في الدور.(39)

---

31) استنباطا من حديث : أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع.
32) استنباطا من حديث : أخذ الراية زيد فأصيب.
33) يعتبر الخطابي صاحب هذا التقسيم.
34) استنباطا من حديث: تزوج الصحابي بما معه من القرآن.
35) واستنباطا من حديث : أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله.
36) استنباطا من حديث : عذاب القبر ووضع النخل لأنه إذا كان يرجى أن يخفف عنه بتسبيح الشجر، فتلاوة القرآن أعظم رجاء وأكثر بركة.
37) من دلالة طريق المفهوم استنباطا من حديث : لعله أن يصلي.
38) استنباطا من حديث : قوموا فلأصلي لكم.
39) استنباطا من حديث : صلاة النافلة جماعة.

- يكون القنوت بعد الرفع من الركوع.(40)

* * *

- جواز الإتكاء والاضطجاع وأنواع الاستراحة في المسجد.(41)

* * *

- قلب الرداء في صلاة الكسوف للتفاؤل، وانقلاب الحال من الجدب إلى الخصب.(42)

* * *

- لابد من قراءة الفاتحة في الصلاة للإمام والمأموم جهرا وسرا.(43)

* * *

- جواز الصلاة على الميت بعد دفنه.(44)

- قصر الصلاة في السفر تسعة عشر يوما.(45)

- جواز الصلاة قصرا وإتماما في منى.(46)

* * *

- ينبغي قضاء فوائت النوافل.(47)

* * *

- إن الكافر إذا لاذ بالصلاة لم يكن ذلك منه إسلاما حتى يصف الدين قولا بلسانه.(48)

* * *

□ **حول المرأة :**

- تبرع النساء في عيد الفطر دليل على تصرفهن في ملكهن بدون إذن.(49)

* * *

- استحباب شهود النساء صلاة الجماعة.(50)

* * *

40) بناء على حديث : كان النبي ﷺ حين يرفع رأسه يقول: سمع الله لمن حمده... يدعو لرجال فيسميهم بأسمائهم.

41) استنباطا من حديث تميم عن عمه : أنه رأى الرسول مستلقيا في المسجد.

42) استنباطا من حديث : رأيت النبي ﷺ خرج يستسقي.

43) بناء على حديث : لاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب.

44) استنباطا من حديث : مر النبي ﷺ على قبر منبوذ فأمهم.

45) اعتمادا على حديث : أقام النبي ﷺ تسعة عشر يقصر.

46) بناء على حديث : صليت مع النبي ﷺ بمنى ركعتين.

47) استنباطا من حديث: الركعتين بعد العصر.

48) استنباطا من حديث : بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام.

49) استنباطا من حديث : أن النبي ﷺ صلى يوم الفطر ركعتين لم يصل قبلها ولا بعدها، ثم أتى النساء وأمرهن بالصدقة.

50) استنباطا من حديث : كان رسول الله ﷺ يصلي الفجر يشهد معه نساء من المؤمنات.

- لا تحجب النساء عن شهود الذكر والدعاء ونحو ذلك من أنواع البر والقرب.(51)

***

- لا تجوز الخطبة على الخطبة إذا كان كل واحد من المخطوبين ركن إلى صاحبه وأراد العقد.(52)

***

- لا تلي المرأة الإمامة ولا القضاء، ولا تزوج نفسها، ولا تلي العقد على غيرها.(53)

***

- إذا لم تجد المرأة ذا محرم لم يلزمها الخروج للحج.(54)

***

- إن الإمام في الصلاة على المرأة الميتة يقوم وسطها ليكون حائلا بين القوم وموضع العورة.(55)

□ **عامة :**

- إن الأمر والنهي إنما يردان بتكليف الشيء المقدور عليه، دون غيره مما لا يملك ولا يستطاع.

***

- بعض العنف والتغليظ عند ظهور المنكر وغلبة أهله حسما لدواعيه جائز.(56)

***

- «أبردوا الحمى بالماء» يعني التصدق بالماء عن المريض ليشفيه الله.(57)

***

- لبس الخواتم في اليدين وتعددها زوجين زوجين بدعة.

***

- للإمام أن يؤدب بعض أصحابه بالهجران، والإمساك عن الكلام، وأن يجاوز فيه ثلاثة أيام.(58)

***

- جواز التلقيب للتعريف دون التهجين.(59)

---

51) بناء على حديث : أن النبي ﷺ قال يوم العيد : لتخرج العواتق وذوات الخدور للمصلى.
52) استنباطا من حديث: لا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك.
53) استنباطا من حديث : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة.
54) استنباطا من حديث : لا تسافر المرأة ثلاثا إلا ومعها ذو محرم.
55) بناء على حديث : أن النبي ﷺ صلى على امرأة ماتت في نفاسها فقام وسطها.
56) استنباطا من حديث : تكسير القدور المطبوخ فيها لحوم الحمر الوحشية.
57) استنباطا من حديث الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء.
58) استنباطا من حديث : كعب بن مالك في تخلفه عن غزوة تبوك.
59) استنباطا من حديث : ذي اليدين.

ـ إن نبع الماء من الأصابع أقوى من تفجيرها من الحجر.(60)

* * *

ـ جواز الإطلاع على عورات البالغين لإقامة حق واجب كالختان.(61)

* * *

ـ إن الفرق بين مصيبة المسلم والكافر هو النية واحتساب الأجر.(62)

ـ حل الهجران إذا كان لمن أتى معصية أو جنى على الدين وأهله.(64)

* * *

ـ الذميون إذا زنوا يطبق عليهم الإسلام كالمسلمين.(65)

* * *

ـ كراهة الحمرة في لبس الرجال.(66)

الرباط ـ يوسف الكتاني

---

60) استنتاجا من حديث : نبع الماء من أصابع النبي ﷺ ومقارنته بتفجير موسى الماء من الحجر.
61) استنباطا من حديث : اغتسال موسى وفرار الحجر بثوبه.
62) استنتاجا من حديث : اشتكى سعد بن عبادة.
63) استنباطا من فعل النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم، ولأن النهي إنما كان عن رفع الصوت، والقول المنكر فيه.
64) استنباطا من حديث هجران كعب بن مالك.
65) بناء على حديث أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل وامرأة زنيا.
66) استنباطا من حديث النهي عن المياثر الحمر، وكانت النساء تصنعنها لبعولتهن مثل القطائف يصفرنها.

بشائر العيد

للشاعر
محمّد البلغمي

حي البطولة والشباب ... في عيد من يرعى الشباب!
وارفع إليه تحية ... تسري كما العطر المذاب
مولاي، عيدك بالسنا ... قد هل من بعد ارتقاب!
وسرت بشائر حسنه ... في السهل أو فوق الهضاب
فإذا المواطن كلها ... تختال في أزهى الثياب!
والورد يعبق بالشذى ... والماء يجري في انسياب
وهفا الهزار ليومه ... فشدا بألحان عذاب!
والشعب في فرح يمو ... ج، كأنه بحر عباب
يشدو بعيد شبابنا ... ومليكنا العالي الجناب!
ملك إذا انتسب الملو ... ك، فأصله لب اللباب
أفكاره نور، وفي ... أقواله فصل الخطاب!
مارام حل قضية ... لبلاده.. إلا أصاب
وإذا استشير لدى الخلا ... ف، فرأيه عين الصواب!
يسدي الجهود لشعبه ... والمكرمات بلا حساب
ويقود أمته على ... نهج الشريعة والكتاب!
كم شاد في الأوطان من ... صرح، أعلى من قباب
ولكم بنى من مسجد ... برحابه يرجى الثواب!
ولكم أقام معاهدا ... للعلم سائغة الشراب

سـل عـن مـآثـره.. تجد ببـلادنـا صـدق الجواب!
مـولاي، يـاحسـن الصفـا ت، وصـاحـب الجاه المهـاب
أعليـت شـأن بـلادنـا ورفعتـه فـوق السحـاب
وحفظـت وحـدة شعبنـا وأنلتـه حلـو الـرغـاب!
وفتحـت في وجـه الشبـا ب إلى التقـدم كـل بـاب
وجعلتـه متحمسـا يمضي ولا يخشـى الصعـاب!
إن الشبـاب دعـامـة للقطـر مـن دون ارتيـاب
إن يلـق تشجيعـا أتـى في السبـق بـالعجب العجـاب!
يـارائدا للسلـم في زمـن التحـاور بـالحراب!
صحـراؤنـا عـادت لنـا بـالحق، وانقشـع الضبـاب!
وأظلهـا عهـد السنـا بـالأمـن، مـن بعـد اضطـراب
وغـدت بجهـدك أرضهـا تـزهـو كـروض مستطـاب!
يجنـي بفضلـك أهلهـا مـا لـذ مـن خير وطـاب
صحـراء يـاأغلى المنـى نفـدي رمـالـك بـالـرقـاب!
إن يـدعنـا حسـن العلى سنهـب كـالأسـد الغضـاب
لنصـون وحـدة قطـرنـا ونـذود عـن كـل التراب!
إني لأعجـب للـذي هجـر الأهـالي والصحـاب
وجفـا المواطـن مـؤثـرا عيـش الضيـاع والاغتراب
فـإلى متـى تـرضـى.. أخـي بـالـذل في أسر العـذاب؟
وتعيـش بـالأحـلام مخـدوعـا وأوهـام السـراب؟

عـد يـاأخـي لبـلادنـا فهـي الأمـان لمن أنـاب
والحلـم شيمـة عـرشنـا بـالعفـو يلقـى مـن أجـاب!
مـولاي، عـش في رفعـة والنصر دومـا في الـركـاب
ومحمـد يحيـا لنـا وهـدى السماء لـه حجـاب!
وكـذا الـرشيـد، وكـل مـن نـال التشرف بـانتسـاب
مـا غـردت قمـريـة أو لاح نـور مـن شهـاب!

فاس - محمد البلغمي

سيدي محمد بن عبد الله
العالم المصلح المحدث

للأستاذ محمد علي بن الحسن بن الصديق

إن شخصية سيدي محمد بن عبد الله الفذة وعبقريته العلمية تجلت منذ حداثة سنه. وتوفرت لها عدة عوامل ساعدت على نموها في سن مبكرة. فزيادة على تربيته في أحضان بيت الملك والسلطان وما يوفره للمربَّى فيه من مؤهلات تربوية وأطر تعليمية واحتكاك برجالات العلم والفكر والقلم والسياسة والأدب والشعر. حظي بعناية خاصة من أبيه وجدته الفاضلة السيدة خناثة بنت بكار(2) التي كان لها شفوف ومنزلة ومكانة خاصة بين رجالات القصر. وذاك ما جعل سيدي محمد بن عبد الله على صغر سنه يحظى بمرافقة حدته في سفرها في موكب رسمي إلى أداء فريضة الحج وزيارة الديار المقدسة.(3) وكانت فرصة عزيزة جاد الله بها عليه. مكنته من الاتصال بكثير من علماء البلاد التي مرَّ بها الموكب، خاصة علماء مصر والحرمين الشريفين. فزاد ذلك في صقل مواهبه وتفتح مداركه ومضاعفة شغفه بالعلم والمعرفة.

فما أن عاد إلى بلده حتى أقبل على العلم وأكبَّ على القراءة والمطالعة، وحبِّب إليه في البداية الاشتغال بكتب الأدب وخاصة كتاب الأغاني الذي تذكر المصادر أنه كاد يحفظه عن ظهر القلب على ضخامة الكتاب الذي نعرف أنه طبع في عشرين مجلدا. لذلك كان كثير

(1) أصل هذا البحث عرض شاركت به سنة 1988م في ندوة سيدي محمد بن عبد الله بكلية الآداب بالجديدة.

(2) بنت الشيخ بكار بن علي بن عبد الله المغافري، زوج السلطان المولى إسماعيل.

(3) وكان ذلك سنة 1143هـ انظر الإعلام للمراكشي، ج: 5 ص: 109.

الاستشهاد بما روي في هذا الكتاب من تراجم وقصص وأشعار وكأنها نُصْبَ عينيه، مما حدا إلى الاعتقاد أنه كان يستظهره.

وما كان ليشذ عما تفرضه أصول التربية والتعليم والسنن المتبعة فيه في عصره، بل وفي كل عصر ومكان من وجوب الابتداء بالوسائل قبل الغايات، وتقديم الأهم فالأهم، وخاصة وهو في بيت الملك والسلطان الذي يرعى العلم والعلماء، ويهتم بعلوم الدين قبل غيرها من العلوم الأخرى.

إذن فلابد وأنه درس أول ما درس علوم اللغة التي أهلته لقراءة مثل كتاب الأغاني وما يحتويه من أشعار الأهالين وغيرهم، التي تتطلب تكوينا متينا في اللغة. إضافة إلى علوم الفقه والكلام والتفسير وغيرها من العلوم التي كانت تدرس في معاهدنا القديمة ولا تزال، وبها كانت تبتدئ مراحل التعليم قبل الوصول إلى دراسة مثل كتاب الأغاني وما في مستواه.

وإذا كنا نعرف أن سيدي محمد بن عبد الله دخل إلى حلبة الحكم والسياسة وعمره 25 سنة(4). إذ تولى منصب الخليفة بمراكش في هذه السن، ثم استمر في هذا المنصب إلى أن بويع بالملك عقب وفاة أبيه ـ رحمه الله ـ وكانت الظروف التي تولى فيها الخلافة ظروفا صعبة وقلقة ومضطربة في عموم المغرب. وهو الأمر الذي يتطلب من مسؤول في مستواه التفرغ التام لمسؤوليته وبكل طاقته وثقله، وفي حزم وحذر شديدين ودون توان أو كسل. وإلا عَرَّضَ نفسه والدولة والبلاد للخطر. وإذا علمنا مع ذلك كيف استطاع بحكمته وحنكته وسياسته أن يقضي على الفتنة في الجهات التي تولى الحكم فيها نيابة عن أبيه، حتى أجمعت القلوب على حبه والثناء عليه، وسارعت كثير من الجهات إلى الدخول في ولايته وطاعته حتى دعي إلى المبايعة في حياة أبيه فرفض.(5)

وما أن توفي والده حتى تسارع الجميع إلى مبايعته وفي كافة أنحاء المغرب وجهاته دون توقف أو تردد، لِمَا شاع من فضله وذاع من كفاءته وحسن سياسته ويمن نقيبته، مما تعرض له المؤرخون بتفصيل، وليس هو من موضوع حديثي هذا، غير أني أشرت إليه لأمهد به فقط إلى أنه إذا كان الأمر كما قلت وأن الاشتغال بالعلم فأحرى التفرغ لتحرير مسائله والتأليف فيه هو مما لا يتأتى في العادة

(4) الإعلام للمراكشي ج 5 ص: 112.
(5) نفس المصدر السابق ص: 113.

مع أعباء الملك والسلطان، وكما قيل: العلم لا يقبل الشريك.

فإذا وُجِدَ مع ذلك من استطاع الجمع بينهما وكان إلى جانب أعباء الملك والدولة وخاصة في الظروف الصعبة وعندما تجتاح البلاد فتن من الداخل والخارج وتتعرض للغزو والاحتلال الأجنبي، كما كان الشأن بالنسبة لأيام سيدي محمد بن عبد الله، فإذا كان إلى جانب ذلك كله يتمكن من وقت يخلو فيه لنفسه ليقرأ ويكتب ويؤلف، ويساجل العلماء، ويأتي بالطريف والجديد فيما كتب وألف كما ألف سيدي محمد بن عبد الله، وأمتع الخزانة المغربية بما كانت في حاجة إليه، بل بما لم يسبق لغيره أن ألف فيه أو اهتدى إليه لما سنتعرض له بعد إن شاء الله عند الكلام على سيدي محمد بن عبد الله المحدث.

فحسبنا هذا إذن في تصور عظمة هذا العالم الجليل ونبوغه إجمالا أن يكون ملكا وعالما ومؤلفا ومشاركا فيما يعقد بحضرته من مجالس علمية ودروس حديثية في آن واحد.

فكانت بذلك شخصية سيدي محمد بن عبد الله شخصية فذة وفريدة يعز وجود نظير لها بين ملوك الإسلام لا في المغرب فحسب، ولكن على مستوى العالم الإسلامي ومنذ قرون عديدة، ومن ثم كان الكلام عن سيدي محمد بن عبد الله طريفا وممتعا وذا جوانب ومجالات واسعة ومناح متعددة. ويكفي أن أُفرِدَت ترجمته بالتآليف وكُتِبَ حوله الشيء الكثير، وتَتَبُّعُ ذلك يفضي بنا إلى طول.

لذلك ارتأيت أن أحصر موضوع هذا البحث ـ المتواضع ـ في نقط ثلاث كما يوحي به عنوانه وهي:

1 — محمد بن عبد الله العالم

2 — محمد بن عبد الله المصلح

3 — محمد بن عبد الله المحدث

إذن فلتكن النقطة الأولى وهي

1 ـ سيدي محمد بن عبد الله العالم:

وحسبنا هنا بعدما تقدم في التمهيد أن نشير إلى التغيير المفاجئ الذي طرأ على مساره الفكري ونشاطه العلمي. فبعد أن أسندت إليه مقاليد الحكم عن جدارة واستحقاق ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ أولع بسرد كتب الحديث والسير والمغازي. وصارت شغله الشاغل في أوقات فراغه، وديدانه الذي لا محيد له عنه. فاستدرك ما فاته من هذه العلوم الشرعية في شبيبته، وكان دائما يتحسر ويقول: «والله

لقد ضيعنا أعمارنا في البطالة واللهو في حالة الشبيبة».(6)

وغني عن البيان أن هذا لا يتنافى مع ما ألمحت إليه في التقديم، لأنه لابد أن يكون قد ألمَّ بشيء من العلوم الشرعية في أول مراحل تعلمه، ولكنه يهدف بمقاله هذا إلى التوسع في هذه العلوم، الشيء الذي لم يتأت له في صغره تشاغلا عنه بعلوم الأدب والتاريخ التي كان له ولوع بها.

وتتجلى هذه الحسرة والندامة في رسالته التي بعث بها إلى ولده مولاي علي خليفته على فاس عندما بلغه أنه يقيم مجالس لسرد كتب، الأدب والتاريخ، فأرسل إليه أولا يطلب منه أن يبعث إليه بهذه الكتب فلما تم له ذلك جمعها في صناديق وبعث بها وقفا على مكتبات وعلماء الأسكندرية والقاهرة.

ثم كتب إلى ولده ثانية رسالة يعظه فيها وينصحه بالابتعاد عن مثل هذه الكتب، والانشغال بما هو أهم. ونقتطف من هذه الرسالة ما يتعلق بموضوعنا، قال: «فإياك ثم إياك أن تعمل مثلي، فقد شغلت نفسي أيام الشباب بها، وتركت القرآن والتفسير والحديث حتى حصلت على الندامة، فإياك ثم إياك أن تعمل مثلي فتشبه بمن هو أعلى منك ولا تتشبه بمن ماثلك أو أدنى منك»(7)

واهتمامه خاصة بالحديث لم يقف عند ولوعه وشغفه بمطالعة كتبه، بل تعدى ذلك وتجاوزه إلى مشاركة كبار علمائه وأئمته ممن دونوا فيه الكتب والمسانيد، فشاركهم في حفظ متونه وفقه معناه. وقام بعد ذلك بعقد مجالس حديثية لم يسبق إليها. فكانت هذه المجالس يحضرها صفوة من العلماء الكبار من أمثال مولاي عبد الله المنجرة، وأخيه مولاي عبد الرحمان، وأبي عبد الله محمد بن الشاهد، وأبي العباس أحمد بن عثمان، ومحمد بن عبد الرحمان الشريف، والطاهر السلاوي، وغيرهم من العلماء الذين تم استدعاؤهم من فاس ومكناس وسلا ليقيموا معه بمراكش. فوزعهم على مساجدها، يؤمون الناس في الصلاة ويلقون الدروس بها.

وكان يعقد لهم مجلسا كل يوم جمعة بعد الصلاة بالمسجد تحت رئاسته. كما كانت تثار فيه المسائل العويصة باقتراحه، ويكون تدخله فيها قويا وفعالا.

وقد وصفت المصادر بعض ما كان يدور في مثل هذه المجالس ومن كان يحضرها من العلماء الوافدين عليها من جهات المملكة.

(6) الإعلام للمراكشي ج: 5 ص: 116.

(7) الترجمانة الكبرى للزياني ص: 64.

وكـانت لـه مجالس حـديثيـة خاصـة يحضرها نخبة مـن العلماء من أمثال أبي عبد اللـه محمد بـن أحمد الربـاطي وأبي عبـد الله محمـد بن المير السـلاوي، وأبي زيـد عبـد الـرحمان بــن عبـد القـادر بوخريص، وغيرهـم ممن ذكرهم المراكشي في الإعلام وغيره. وكانـت مهمة هؤلاء أن يملي عليهـم أحـاديث ليقـومـوا بشرحهـا وتـأليفها على مقتضى ما يشير عليهم.

وهكـذا أصبـح مترجمنـا قبلـة للعلماء والفقهـاء والمحـدثين يقصدونـه لحضـور مجالسـه العلمية والحديثيـة وأكتفي هنـا بـذكر ثـلاثـة من أعـلامهـم هم: الشيـخ التاودي بن سودة وحافظ المغرب في وقته سيدي إدريس العراقي، والفقيه عبد القادر بوخـريص، الـذين كلفهـم بشرح مشارق الأنوار للصغـاني، وقام كـل واحد منهـم بشرح ثلث الكتاب.

إن شغف سيـدي محمد بـن عبد اللـه بـالعلـم والعلماء تجاوز حـدود المغـرب ليصل إلى علماء المشرق، مثل الشيخ محمد الأمير المصري من علماء الأزهر الذي طلب منه أن يتـم كتابه الفتح البـاري لاقتطاف أزهار المسانيد لتخريج أحاديث البخاري، بعـد أن كـان أنجـز فيــه بنفسـه قسـم العبادات منـه، اعتذر تـواضعا منـه بأنـه قاصر عن إنجاز قسـم المعاملات لقصوره فيهـا، وعــدم الإلمام بها. كما أمـر بشرح ونسـخ عدد مـن الكتـب تكفلـت رسالـه الأستاذ الحسن العبادي(8) بالحديث عنها بتفصيل يشكر عليه.

والكلام عـن الـرجل وقيمتـه العلميـة يجرنـا حتما إلى الكـلام على مصنفـاتـه ومؤلفاته وهي كثيرة ومتنوعة، وأغلبها لا يزال مخطوطا لم يـر نور الطبع بعد، ولم يطبـع منهـا حسب علمـي سـوى كتـاب الفتوحـات الإلهية. أما مـا عداه فـلا يزال قابعا في رفوف الخزانات الخاصة والعامة، ونتمنــى مخلصين أن يهيـأ لها سبيـل الظهـور والانتشـار لتعـم الفـائدة بها، ويتحقق مـا كان يرجـو منها مؤلفهـا من توجيـه أنظار رعيتـه وغيرهم إلى العنـاية بالحديث الشريف وفقهـه وآدابه وأخلاقه. ويكـون في نشرها إضـافـة جـديدة لمآثـر الدولـة العلوية الشريفـة، وما أسهمـت به من نهضـة علمية مباركة. وهـذه المؤلفات كما وقفت عليها وأذكرهـا دون ترتيب أو إشارة إلى مضمونها وهـي: طبق الأرطاب فيما اقتطفناه مـن مسانيـد الأئمة وكتـب مشاهير المالكية.

● الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد.

---

(8) رسالـة دبلوم مـن دار الحديث الحسنيـة بعنوان: الملك المصلـح سيدي محمـد بن عبـد الله. ط 1987 ـ مطبعة «بنميد» الدار البيضاء.

• بغية ذوي البصائر والألباب في الدرر المنتخبة من تآليف الحطاب.

• بغية الطلاب المعينة قارئها على عبادة العزيز الوهاب.

• سمط الجواهر واللآلي على الإحياء.

• ترويح القلوب.

• فتح الباري في اقتطاف أزهار المسانيد لتخريج أحاديث البخاري.

وغيرها.

وقد لقيت كل هذه الكتب قبولا حسنا من طرف العلماء والطلبة منذ عصر المؤلف، فأقبلوا عليها شرحا وتدريسا. وقد جاوز صيتها الآفاق حتى كان يُدرس بعضها في الحرمين الشريفين وغيرهما من البلاد الإسلامية. وكان يكاتب في شأنها العلماء بالداخل والخارج ويطلب رأيهم فيها، فيكتبون إليه بما يرونه فيها. فكان يقبل انتقاداتهم لها بموضوعية وأخلاق العلماء ذوي الفكر الثاقب والقدم الراسخ، تغمده الله برحمته.

ولعل في هذه اللمحة الوجيزة ما يكفي لإعطاء نظرة عن مكانة سيدي محمد بن عبد الله العلمية ولو بصورة مجملة، لننتقل بعد إلى النقطة التالية.

2 ـ سيدي محمد بن عبد الله المصلح:

إن جهود مترجمنا الإصلاحية هي الأخرى كثيرة يصعب التعرض لها على وجه التفصيل في بحث موجز كهذا، ولذا سأكتفي بالإشارة إلى بعضها فقط، أو بالأحرى إلى بعض جهوده الإصلاحية في ميدان السياسة للدولة العامة، وخاصة الخارجية منها، ثم في ميادين العدل والقضاء والتعليم.

ففي ميدان السياسة الخارجية: نجد أنه ربط صلات وثيقة مع الخلافة العثمانية، وكان يتودد إليها ويتقرب منها ويناصرها ويعادي أعداءها، حتى إنه رفض استقبال سفير روسيا وإقامة علاقة دبلوماسية معها، لأنها كانت في حرب مع الخلافة العثمانية، وذلك قياما بواجب الأخوة الإسلامية، وما تفرضه من تعاون وتآزر بين المسلمين، وقد جاوز ذلك إلى أن دعا للخليفة العثماني عبد الحميد الأول في خطب الجمعة مع أنه كان في غنى عن ذلك، لقوة الدولة المغربية آنذاك. وهذا الأمر لم يقع في تاريخ المغرب الطويل إلا مرتين، مرة في عهد يوسف بن تاشفين الذي خطب للخليفة العباسي، ومرة في عهد سيد محمد بن عبد الله مع الخليفة العثماني. وفي كلتا الحالتين كان المغرب دولة قوية مرهوبة الجانب في الخارج

تخطب الدول ودها وتحسب لها حسابها. ولكن إيمان سيدي محمد بن عبد الله بالوحدة الإسلامية الكبرى كان التفسير الوحيد لما قام به.

وكثيرا ما كان يختار الجانب السلمي ويبعث إلى الخليفة العثماني للتوسط بينه وبين ولاته على الجزائر، ولحرصه على تأكيد أواصر الأخوة والمودة بين أمراء المسلمين أصهر إلى أمير مكة الشريف سرور وزوّجه ابنته.

أما في الميدان القضائي والعدلي: فقد أمر القضاة أن يتحروا العدل ما استطاعوا، وينهاهم عن الرجوع إلى المختصرات والفتاوي الضعيفة والأقوال المرجوحة، وأن يعودوا إلى الأصول ويعملوا بالحديث، وأعطى الفقهاء الحق في مراقبة أعمال القاضي والسعي في عزله إذا هو حاد عن الحق وزاغ عن الطريق المستقيم. كما شدد على العدول والموثقين في تحرير الشهادات والتحري فيها ما أمكن، وأمر بأن يُكْتَبَ على سماط العدول بالخط العريض حتى يقرأه كل الناس هذا البيت:

لقد طلبت هنيا موجودا
أبهتا تريد أم فنودا

أما في الميدان التعليمي: فقد عمد إلى إصلاح نظام التعليم بالقرويين بانتقاده لمناهج التعليم التي كانت متبعة بها. فأعاد النظر في الكتب المقررة، ودعا إلى الرجوع إلى كتب الأقدمين المطولة والمبسوطة مثل مدونة سحنون والبيان والتحصيل والمقدمات لابن رشد وجواهر ابن شاس ونوادر ابن أبي زيد القيرواني ورسالته.

وعاب العكوف على قراءة المختصرات التي تجمد قريحة الطالب، مثل مختصر الشيخ خليل وبعض شروحه، ويضيع الطالب وقته في فهمها وحلِّ ألفاظها التي كثيرا ما تكون أشبه بالألغاز ثم لا يحصل منها في النهاية على الملكة المطلوبة في العالم، وتجعله مدركا لمقاصد العلم ومراميه. وإذا احتاج إلى قراءته، فليكن ذلك بشروح موسعة كشرح الحطاب الذي كان له عناية به. هذا من الناحية الفقهية. ثم كان يحث على الاشتغال بعلم الحديث وكتبه لأن الحديث هو الأصل الثاني للأحكام الفقهية، ويدعو إلى قراءة كتب الصّحاح والمسانيد. ثم إلى العناية بالتفسير وعلوم اللغة والأدب باعتبارها وسيلة لفهم القرآن وإدراك إعجازه. وكان لا يحبذ الاشتغال بعلم الكلام على طريقة الأشاعرة والمتأخرين، ويرى أن عقيدة ابن أبي زيد تكفي المسلم في عقيدته، ويفضل طريقة السلف في العقائد وما كان عليه الإمام أحمد بن حنبل، ولذا كان يصف نفسه بالحنبلي عقيدة ويوقع على نفسه:

محمد بن عبد الله الحسني المالكي مذهبا الحنبلي اعتقاداً، الله وليه ومولاه.

ويذكرنا موقفه هذا في بعض الوجوه بيعقوب المنصور الموحدي من كتب الخلاف والفقه المالكي المخالفة لمذهبه الظاهري. ولكن مع فارق الدعوة إلى ذلك بطريق الحجة والإقناع في منهج سيدي محمد بن عبد الله دون العمد إلى إحراق الكتب المرغوب عنها أو الدعوة إلى مذهب آخر غير المذهب المالكي، بل اقتصر الأمر عنده على الكتب التي يرى أن غيرها أولى منها بالدراسة والعناية وأقرب إلى حصول الغاية.

كما أن موقفه من كتب التصوف والفلسفة كان شبيها بموقف الحنابلة، إلا أنه منع منها أن تقرأ بالمساجد والجوامع ولمن شاء أن يقرأها لنفسه وفي داره.

كل هذا وذاك يدل على عبقرية هذا الإمام، وأنه كان من المجددين المصلحين الذين لم يقتصر اهتمامهم على جانب دون آخر. وقد مكنه علمه من إدراك الخلل الذي طرأ على الناس في عباداتهم وعقائدهم والكتب التي يدرسونها ويستمدون منها. فدعا إلى إعادة النظر فيها والعناية بأصولها، والرجوع إلى الكتاب والسنة وطريقة السلف الصالح. فرضي الله عنه.

3 ـ سيدي محمد بن عبد الله المحدث:

أجد نفسي أمام بحر متلاطم الأمواج إذا ما وفيت هذه النقطة حقها من البحث ورجعت إلى مدلول المحدث في اصطلاح علماء الحديث وما يشترط فيه، واستعرضت مع ذلك جهود المغاربة عموما في ميدان الحديث لنرى:

هل كان فيهم محدثون حقا بالمعنى الاصطلاحي؟

هل جارى المغاربة إخوانهم المشارقة في علومه وميادينه المتشعبة والمتعددة؟

وإذا كان ـ مع الأسف ـ الجواب سلبيا، إلا في فئة محدودة جدا... وذلك لأسباب عدة، من أهمها انقطاع الاجتهاد، والاقتصار على كتب المذهب وحصر القضاء والفتوى على الراجح والمشهور في المذهب، دون الرجوع إلى مصادر الأدلة التي يعتبر الحديث أهمها بعد كتاب الله تعالى. وأصبحت الوظائف تبعا لذلك وقفا على فقهاء المذهب وحدهم، الأمر الذي جعل الرغبة في الحديث ضعيفة وتكاد تكون مقصورة على جرد همته للتعلم لله دون غاية أخرى. وأسعفه الحظ مع ذلك بالتعرف على كتب الحديث والسنة والأخذ عن بعض رجالاته وعلمائه المتخصصين فيه، ولا سيما عند القيام برحلة في طلب ذلك، أو عندما تسنح

الفرصة لبعضهم عند أداء فريضة الحج بالاجتماع ببعض علماء الحديث واستجازتهم والأخذ عنهم ولو على سبيل التبرك.

والحديث من أصعب العلوم التي تقتضي التفرغ له والوقوف على ما دُوِّن فيه من كتب الصّحاح والسنن والمعاجم والمسانيد وكتب الرجال والطبقات والجرح والتعديل فضلا عن الأجزاء والمفردات.

ومن ثم كان لقب المحدث في اصطلاح المحدثين هو كما قال ابن السبكي: «إنما المحدث من عرف الأسانيد والعلل، وأسماء الرجال، والعالي والنازل، وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون، وسمع الكتب الستة، ومسند أحمد، وسنن البيهقي، ومعجم الطبراني. وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية. هذا أقل درجاته».(9)

ومن هذا المنظور الخاص، كان علم الحديث في غاية الصعوبة إلا في حق من تفرغ له وتجرد لتحصيلة وأقبل عليه احتسابا وبِشَغَفٍ ونَهَمٍ.

ومن ثم كان المقبلون عليه في كل عصر من العصور قلة حتى فيما قبل فُشُوّ التقليد، وحصر القضاء والفتوى في مذهب معين ابتداء من القرن الرابع فما بعد.

وبحكم موقع المغرب الجغرافي وبُعْدِهِ من مواطن الرواية، لم يتأت لأهله في أول عهوده الاتصال برجالات الحديث وشيوخ الرواية، كما تأتى ذلك للأقطار المشرقية، فَقَلَّتْ بذلك الرغبة في علم الحديث، واكتفى الناس بأخذ الأحكام جاهزة من كتب الفقه المالكي الميسورة، وخاصة من المدونة وشروحها، ثم استمر الأمر على ذلك إلى أن أصبح الحديث إنما يقرأه من أراده على سبيل التبرك فقط وفي مناسبات خاصة، كأيام رجب وشعبان ورمضان.

ويُكتفى في طلبه بسماع الصحيحين لشهرتهما، دون غيرهما من كتب السنة ودواوينها، حتى كان من مناقب مترجمنا أنه أول من أدخل مسند الإمام أحمد إلى المغرب على شهرة هذا الكتاب بين المحدثين، واعتباره من أهم مراجع الحديث، لاشتماله على ثلاثين ألف حديث أو تزيد. وأدخل معه مسندي أبي حنيفة والشافعي، وجعل من هذه المسانيد مع الموطأ والصحيحين مصدر كتابه (الفتوحات الإلهية).

وانطلاقا من هذا المنظور وهذا التمهيد المقتضب الذي اقتضاه المقام لبيان ما كان عليه حال علم الحديث في المغرب في عصر مترجمنا بل ومن قبل عصره بقرون، يمكن التركيز على شخصية سيدي محمد بن عبد الله الحديثية، لنرى أي فضل كان لهذا

(9) معيد النعم ومبيد النقم ص: 81، ط: دار الكتاب العربي ـ مصر.

الرجل العظيم، وأي فكر ثاقب حباه الله به، حين ألهمه العناية بعلم الحديث والاهتمام بمصادره والاشتغال بها، ثم العمل على نشرها، وتوجيه الأنظار إلى علم الحديث وتمهيد سبل ذلك، بما أحيى من دروسه، وألف من كتبه، وجلب من مراجعه، حتى بعث سفارة خاصة لجلب كتبه من الأستانة عاصمة الخلافة الإسلامة وغيرها.

وكان يرى أنه لا سبيل إلى الوصول إلى ما كان يهدف إليه من إصلاح أمته إلا بالرجوع إلى طريقة السلف عملا بقول الإمام مالك رحمه الله: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وأنه لذلك، يجب الرجوع إلى منابع السنة الصافية والاغتراف منها والاهتداء بأنوارها.

فكان ذلك بحق، يعد من أهم آثار هذا الملك المصلح السلفي الأثري.

وإفاضة القول في هذا الموضوع ربما تفضي بنا إلى طول، فلنكتف بهذه الإشارة الخاطفة، ولنلق ولو نظرة موجزة عن بعض جهود سيدي محمد بن عبد الله في هذا الباب.

فمن جهوده في ذلك ما سبقت الإشارة إليه ضمن نشاطه العلمي بصفة عامة.

ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: مجالسه الحديثية، وتكليفه لجماعة من كبار العلماء بدراسة كتب الحديث في المساجد والجوامع، وشرح بعض كتب الحديث كمشارق الأنوار ثم قيامه بنفسه بتأليف في الحديث. مثل كتاب «مسانيد الأئمة، وفتح الباري في اقتطاف أزهار المسانيد لتخريج أحاديث البخاري، والفتوحات الإلهية الكبرى».

هذا الكتاب القيم الفريد من نوعه، الذي يعتبر أول كتاب من نوعه حيث جمع ما اتفقت الأئمة الأربعة على روايته، ثم البخاري ومسلم. فقسمه ـ تبعا لذلك ـ إلى ما رواه الأئمة الستة ثم الخمسة ثم الأربعة ثم الثلاثة ثم الإثنان، ومقتصرا على الصحابي الذي روى الحديث ومن خرجه من هؤلاء الأئمة. وبلغ مجموع أحاديث الكتاب 2262 حديثا. مع العلم بأن من فوائد هذا الكتاب تفنيد ما قد شاع من أنه لم يكن لأبي حنيفة عناية برواية الحديث حتى ذكر ابن خلدون أنه لم يرو إلا سبعة عشر حديثا.(10)

فاهتم سيدي محمد بن عبد الله بمسانيد الأئمة الأربعة بالخصوص، ومنهم أبو حنيفة باعتبار أنه أكبر الأئمة الأربعة أتباعا، ومن البعيد جدا أن يحظى الإمام بهذه المكانة ويتبعه السواد الأعظم من

(10) المقدمة ص: 444، طبعة مصطفى محمد ـ مصر.

الأمة، وهو لا يروي إلا سبعة عشر حديثا، لذلك اهتم سيدي محمد بن عبد الله بمسند أبي حنيفة الذي لم يكن مسنده يحظى بالشهرة التي لمسند أحمد والشافعي.

وحين جلب هذه الكتب، عكف على قراءتها جميعا، واستوعب أحاديثها حتى أمكنه أن يصنفها إلى أقسام حسبما اتفق الأئمة على روايته كُلاًّ أو بعضا. فكان من ذلك هذا الكتاب الفريد الذي من حسن الحظ يوجد مطبوعا بين أيدينا، حيث طبع في عهد محمد الخامس رحمه الله وبإشارة منه، كما في مقدمة للأستاذ رشيد ملين.

غير أنه يجدر التنبيه على وهم وقع في هذا الكتاب، وذلك مما لا يضر مكانة مؤلفه في شيء، إذ لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، خصوصا والمسألة دقيقة لا ينتبه لها إلا المختصون من رجال الحديث. وذلك حينما نسب رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده إلى البخاري ومسلم مع أنهما لم يخرجا حديثه في صحيحيهما كما هو معلوم عند أهل الحديث.(11)

ولعل في هذا القدر كفاية، وليكن مسك ختام هذا البحث المتواضع ما حلى به محمد بن الطيب القادري صاحب نشر المثاني هذا الملك العظيم حيث قال: «فهو أدام الله نصره سلطان العلماء وعالم السلاطين».(12)

فكانت عبارة جامعة تغني عن غيرها ولا تحتاج إلى زيادة بعدها، فتغمده الله برحمته الواسعة، وجزاه الله عن العلم والعلماء خيرا. آمين.

طنجة ـ محمد علي بن الحسن بن الصديق

---

(11) مثلا حديث رقم: 206 ص: 59.

(12) نشر المثاني ج: 2 ص: 271، ط: حجرية ـ فاس.

من وحي عيد الشباب

للشاعر محمد المختار العلمي

لحن الوفاء مع القصيد أهديه ... إلى المجيد بعيده أغنيه

فمن مجادته استوحيته أدبا ... أثرت أصالته من مجد موحيه

لذكريات شبابه أرصعه ... بدائعي، وإلى الشباب أزجيه

متى تجاوبت الأصداء والتحمت ... أعراسه صدحت به نواديه

أكرم بعيد شباب في حفاوته ... يزهو الشباب تشوقه أمانيه!

مؤكدا عهده على الوفاء لمن ... أوفى إلى عنصر الشباب يرضيه

حق الوفاء له حق تؤكده ... عرى الولاء، ومحض الحب يبديه

* * *

وللشباب ربيعه، يؤلقه، ... يعيره حيوية تقويه

للاضطلاع بكل ما يناط به ... والامتثال لعزمة تناديه

شأن الشباب عظيم ليس يبخسه ... إلا تقاعسه عما يرقيه

ولم تقم نهضة إلا على عاتق الشباب، يصنعها بكل أيديه

وما تقدمت الأوطان وازدهرت ... إلا بما استرسل الشباب يعطيه

حمد الشعوب شبابها يبرره ... وعي الشباب، وحبه لأهليه

لا يزدهي بذويه في مفاضلة ... ولا بمنقبة، ولا بتنويه

إلا إذا شهدت له وثائقه ... على جهاد تجلى دوره فيه

ما خلد الشعب من ذكرى تشرفه ... إلا لسابقة في المجد تعنيه
وما احتفت أمة بذكريات خلت ... إلا لتربط حاضرا بماضيه
تاريخ أحداثنا الكبرى تؤازره ... كل الوثائق من عهد لتاليه
من ذا يؤرخها لولا مشاهدها ... وشاهد الوقع خير من نزكيه
أحداثنا كلها نصر تجسمه ... أعيادنا، وبذكر النصر نحييه

* * *

والعيد بهجة شعب لا حدود لها ... في النفس ما اقترنت بما يُمَنِّيه
ومحتفى الشعب أصداء معبرة ... عن نزعة وطنية تحليه
وبسمة العيد في فم الزمان حكت ... ثوابت النصر عن أمجاد مؤتيه
ما افتر ثغر بها إلا على حدث ... مؤكد مجد أمة زهت فيه

* * *

ونشوة العيد كم ترام ذروتها ... لدى الطفولة في زهو وترفيه
كم شاقها ـ وهي في انتشاء بهجتها ـ ... نشيدها فتصايحت تغنيه
تراقصت في رداء السعد رافلة ... زهوا بميلاد من هبت تهنيه
من واصل الليل بالنهار يحضنها ... يخصها بعناية وتوجيه
أعظم بها من كفالة تحالفها ... من ماجد عَلَوِيِّ البذل موفيه
جلالة الحسن الثاني الذي هتفت ... به طفولته دوما تحييه

* * *

أكرم به من همام حازم ثار في ... ريعانه مذ رأى الأحداث تعنيه
خاض النضال فتى في الذود عن شرف ... وسار خلف أبي النضال يفديه
وثار للعرش مذ مست قداسته ... وقاوم البغي مذ طغت عواديه
وظل في كَبَدٍ يذيب مهجته ... هم التحرر ما حثت دواعيه
وما اعتلى عرشه الوطيد حتى غدا ... محررا، ليس كالتحرير يرضيه
وخاض معترك النماء في نهم ... مؤسسا ومشيدا مبانيه
وما الثلاثة والستون من عمر ... مضت سوى حلقات من تحديه

* * *

ياموفي الشعب ما للشعب يسديه ... ومثلجا صدره بما يوافيه
أندت يمينك مما رحت تكسبه ... من المزايا وما دأبت توليه

لأنــت طــالعــه الميمــون تسعــده ... بما يفــاجئــه ومــا يسليــه
مــا حــق حــق لــه إلا تضمنــه ... دستــورك الحق ضــافيــا يجليــه
أوجــد مــن حــدث إلا تــداركــه ... وبينتــه فصــولــه بتنبيــه
وحسبــه مــن حقــوق الأهــل مــا شرف ... الإنســان مــن قيــم زكــت مباديــه

* * *

كفــاك ميمنــة سعــي تــواصلــه ... يعــود طــائلــه فــورا لموليــه
بكــل نــاد تــوالى السعــي متصــلا ... تــوالي الخطــو فيما عشــت تسديــه
كخطــوك المستحــث في مبــادرة ... سريعــة لمنــاشــد تلبيــه
وللســلام مضــت خطــاك تسهــم في ... إرســائه، تتفــادى مــن يعــاديــه
وللــوئام سبيــل كــم خطــوت بــه ... وللتــواصــل كــم تــدعــو مجافيــه
فمــن تــوالــت على الــورى بــودره ... واسترسلــت حسنــاتــه تــزكيــه
تجاذبتــه نــواديهم تمجــده ... وعــانقتــه أيــاديهم تهنيــه

* * *

بــدرا ستبقــى مــديــد النور مــؤتلقا ... سنــاؤه يــرتجى دومــا لــدى التيــه
وملجــأ للــذي يــاتيــك محتكما ... ومــرتجى لــذوي الخلاف تنهيــه
فطــب بعيــدك نفســا مــا ابتــدأت بــه مــع الثــلاثــة والستين تــوليــه
وعــش قــريــرا بما أنجــزتــه وبما ... عكفــت تنجــزه مبــاركــا فيــه
ولــلأمير محمــد مجادتــه ... وللــرشيــد سمــو في تــراقيــه
كــلاهما نــور عين مــن يصــونهما ... بما يصــون ســوادهــا ويحميــه
ونــور اللــه بيتــا أنــت نــائره ... وأكــرم اللــه شعبــا أنــت راعيــه

شفشاون ـ محمد المختار العلمي

قراءة في كتاب تاريخ الوراقة المغربية

تأليف: الأستاذ محمّد المنوني
تقديم: الأستاذة نجاة المريني
أستاذة بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط

اهتمامات الأستاذ العلامة محمد المنوني بالمخطوط المغربي تصنيفا وفهرسة ودراسة اهتمامات خبير ممارس، وهبه الله ذاكرة حافظة تسعفه حين يستدعيها بما اختزنته وتختزنه من معلومات وإفادات، فلم يبخل يوما على أيّ طالب أو باحث أو غيرهما من طلاب العلم بمعارفه أو معلوماته حول مخطوط أو حول محتويات خزانة مّا.

والأستاذ محمد المنوني في أبحاثه ودراساته حول الخزانة المغربية أسدى خدمة كبيرة للباحثين بإرشادهم وتوجيههم دون كبير عناء إلى المخطوط المطلوب أو إلى الكناشة المفقودة، وجهوده القيمة في هذا المجال أكبر شهادة له على خدمته التراث المغربي في ميادينه المتعددة، وموضوعاته الكثيرة، فصنع أزيد من أربعة فهارس لمخطوطات الخزانة الحسنية، والخزانة العامة، والناصرية.

وتعتز المكتبة المغربية اليوم بصدور الكتاب القيّم **«تاريخ الوراقة المغربية»** للأستاذ العلامة محمد المنوني في طبعة أنيقة، وفي ظرف زمني وجيز، بعناية قيدوم كلية الآداب بالرباط الأستاذ عبد الواحد بنداوود، الذي سهر على إنجاز هذا العمل الجاد، وطبعه ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط في ظرف لايتعدّى العشرة أشهر.

*) يقع الكتاب في 358 صفحة من القطع المتوسط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 2، مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء 1991.

وكما أشار الأستاذ محمد المنوني في كلمة الشكر التي صدّر بها كتابه بأن: «نشر هذا العمل التفاتة كريمة نحو مساهمة المغرب في صنعة الكتاب العربي، وهي المبادرة الحضارية التي تبنّتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، وكل من أسهم في الإعداد والتصحيح والتشجيع» (ص18).

إن صناعة المخطوط المغربي عمل جبار أثبت تفوّق المغاربة في فنون النساخة والزخرفة والتسفير منذ العهود الأولى، فسجلت بعض المصادر معلومات دقيقة عن الناسخ وتاريخ النسخ، ويبرز الأستاذ المنوني في مقدمة كتابه فوائد النساخة وتوقيعات النساخ، بل إن: «الخط ربما يرشد إلى تحديد اسم المزخرف والمسفر لمخطوط بعينه، وذلك في حالة ما إذا علمنا من مصدر مَا، أن المعنيّ بالأمر كان بعد كتابته لمنتسخه يعالج بنفسه زخرفته وتسفيره كما هو واقع بعض الوراقين» (ص7).

والكتاب الذي بين أيدينا «**تاريخ الوراقة المغربية**» من المصنفات النادرة التي يصعب على غير الخبير بالمخطوطات على اختلاف أنواعها أن يؤلف على شاكلتها أو منهجها بدقة ووضوح، ومن ثَمّ يتميز الكتاب بالتفرد والخصوصية منهجا ومعلومات وإفادات.

يتضمن الكتاب مبحثين ومدخلا وكشافين.

يتناول **المدخل** تعريف الوراقة، فهي صناعة الورق في رأي البعض، وهي النساخة والتصحيح والتسفير في رأي البعض الآخر، اتخذها الناس حرفة يتعيشون منها، بل إنها: «من أحسن الحرف والأشغال، لما فيها من نشر العلم وتخليده». (ص 12).

يؤكد المؤلف أن الخط المغربي تأثر بطابع الخط الشرقي ثم الخط الأندلسي قبل أن يكتمل ويتميز عن غيره من الخطوط في العصر المريني.

المبحث الأول : ويتناول فيه الوراقة في العصور الإسلامية الأولى أي في عهد المرابطين والموحدين والمرينيين والوطاسيين والسعديين.

أما صناعة الورق، فقد انتشرت في عهد يوسف بن تاشفين، كما اشتهر ورّاقون مغاربة احترفوا النساخة ما تزال بعض منتسخاتهم بخزانة القرويين بفاس والخزانة العامة بالرباط.

وكان لاهتمام الأمراء الموحدين بالوراقة دور في تشجيع الوراقين على الإجادة خطوطا وزخرفة وتسفيرا، إذ عرف أول مركز عمومي للنساخة في هذا العهد، كما أصبح للوراقين ديوان ينتظمون فيه يعرف «بديوان النسّاخين»، وأنّ عدد معامل

صناعة الورق بلغ أربعمائة معمل في مركز الكفادين بفاس.

أما ازدهار صناعة التسفير فيعود إلى عناية الموحدين بتسفير المصاحف وتشجيعهم على التخصص فيها، وقد كتب اللَّخمي الإشبيلي رسالة في الموضوع سمَّاها «التيسير في صنعة التَّسفير »، اعتنى بنشرها العلامة المرحوم عبد الله كَنون في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد.(ص 32).

ويلخص الأستاذ المنوني عن صاحب الكتاب أن أدوات الكتابة تستلزم : **المحبرة، والسكين، والمقرضين، والأقلام،** وغيرها.

ويصنف الأستاذ المنوني الخط في العصر المريني ثلاثة أصناف: مغربي حضري - مغربي بدوي - وأندلسي، وهو خمسة أنواع:

- خط مبسوط كما في المصاحف القديمة.
- خط مجوهر كما في المراسيم السلطانية والرسائل الخصوصية.
- خط مسند أو زمامي للوثائق العدلية.
- خط مشرقي أخذه المغاربة عن المشارقة وطبعوه بطابعهم، وبه يزخرفون عناوين الكتب وغيرها ويكتبونها بماء الذهب، ومن أمثلة ذلك الوقفيات المنقوشة على اللوحات الرخامية في المدارس المرينية بفاس وسلا ومكناس.
- خط كوفي، ومن نماذجه بعض المصاحف القديمة ومنقوشات أبواب بعض المدن والقصبات.

أمّا أدوات الكتابة في العصر المريني فقد تعدّدت وتنوّعت منها: **المحبرة، والقلم، والسكين ومحمل للكتب.**

يقول الشريف السبتي في وصف محبرة من عاج موشح بالذهب: (ص 52).

وناصعة البياض تخيّروها
من العاج الموشّح بالنضار
أقول - وقد صببت الحبر فيها
كذاك الليل يولج في النهار

وفي هذه الفترة تراجعت صناعة الورق المغربي لمزاحمة الورق الإفرنجي المستورد، والذي أثار جدلا حول جواز استعماله كما أشار إلى ذلك الونشريسي في المعيار نقلا عن ابن مرزوق الحفيد في رسالة في الموضوع.(ص 58).

وإذا كان عصر السعديين عصر التميز في المغرب سياسة وأدبا وتأليفا، فإنه تميز أيضا بإنشاء «شبه مدرسة لتلقين الكتابة» متمثلة في درس لتعليم الخط في جامع المواسين بمراكش، وهو في الغالب من عمل السلطان المنصور الذهبي.

وكعادة هذا السلطان في مشاركته في التأليف وقول الشعر، فقد اخترع «أشكالا

مـــن الخط على عــدد حـــروف المعجـــم، واستعملهـا في المراسلات السّرية للدولـة» (ص76).

أمـا النساخـة فقـد ازدهرت في المراكـز الحضريـة والبـدوية وفي الـزوايـا، كما أن تحضير المداد يقـــوم على فـــــائق العنبر المخلـوط بمياه الـورد والـزهر، وتنشيفـه بسحيـق الذهـب الخالـص،أثنين 1 يونيـة 1992 خاصة في الكتابات السلطانية.

ومن أشهر كتب التسفير كتاب «**تسفير الكتب وحـل الذهـب**» للسفيـاني المتـوفى سنة 1029هــ، وفيــه يعالج كيفيـة عمـل ألواح الورق التي يكسوها.

وطريقة حزم كراريس الكتـاب وكسوته بالجلد، وصفة حل الـذهب والكتابة به على الورق والجلد.

حقق هذا الكتيّب الأستاذ ريكار، ونشر بالمطبعة الشرقية بباريس سنة 1925 (ص 85).

ويصنـف المؤلـف النســاخين في هــذا العصر صنفين، معرفا بكل واحد حسب ما توصل إليـه من معلومات عنــه، ذاكرا آراء العلماء في خطه ومنتسخاته وأسمائها:

الصنـف الأول : الوراقون السعـديون حسب تسلسلهم التاريخي، وعددهم سبعة وعشرون.

الصنف الثـاني : الوراقـون في المراكـز والزوايا والإمارات التي بلـغ عددها ثمانية، وأهمها زاوية الصومعة ببني ملال وزاوية تـافيلالـت، والـزاويـة الفاسيـة، والإمـارة الإيلغية، والدلائي،ة والناصرية.

المبحث الثـاني : ويهتـم بـالـــوراقـة وصناعتهـا في العصر العلوي الـذي قسمه المؤلف إلى خمسة أعصر.

ولعـل ازدهار هـذه الصنعـة في العصر العلوي الأول يعـود إلى تأسيس خزانـات عامة وخاصة، فأصبح عمل الوراقين يميل إلى التخصـــص، فهنـاك النســـاخـــون والمصححـــون، والمزخـرفـــون للعنـــوان، والمخرجون للمؤلفات، وغيرهم ممن برعوا في الميدان.

وتنوعت الـــوراقـة في العصر العلـــوي الثـاني لأسبـاب أهمهـا: طابـع الــوراقـة الرسميـة، حيث انتشرت الوراقة في مـراكز كفاس ومراكش وسلا وفق شروط معينة، كالاعتماد على النسخ القديمـة في النساخة، والعنايـة بالمقـابلة والتصحيـح والزخـرفة وغير ذلك.

وإذا كـانت الـوراقة في العصر العلـوي الثالـث قد انتهجـت نفس الخط التطـوري الذي كـانت عليـه في العصر السابـق، فإن أرجـوزة ابن العبـاس الـرفاعـي في الخط «**نظم لآلئ السمط في حسن تقويم بديع الخط**» مـع تعليقه عليهـا «**حلية الكتاب ومنية الطلاب**»، وكذلك أرجـوزة العربي المساري «**سراج طلاب العلـوم**» أضافتا

جديدا إلى التعريف بقواعد الخط وأدوات الكتابة والوراقة بتفصيل.

أمّا العصر العلوي الرابع فقد شكّلت الوراقة فيه مهنة مربحة لا يكتفي الوراق بالعيش منها، ولكن باشتراء عقار أو غيره.

وإذا كانت المطبعة الحجرية قد ظهرت بفاس في هذه الفترة، فإنها لم تؤثر على نشاط الوراقة والنساخة، بل كثر النساخون والمصححون للكتب التاريخية والأدبية والفقهية.

ويظهر أن «الطباعة العربية الوافدة والمحلية» قد زاحمت صناعة الوراقة في العصر العلوي الخامس، وأصبح الخط المغربي العربي وقفا على «إعداد المخطوطات التي لم يسبق نشرها، أو كانت ذات أهمية مصحفية أو حديثية» (ص275).

ومع ذلك، فإن المغاربة لم يزدادوا مع الطباعة إلا عناية بالخط المغربي وزخرفته وتنميته، وأشهر خطاط في الفترة هو الفنان عبد الكريم سكيرج (ت: 1984)، فبالإضافة إلى براعته وإجادته لكثير من الخطوط المغربية والمشرقية، فقد كتب مقالا نشره بمجلة الثقافة المغربية «تحدث فيه عن طريقة تعلّمه تجويد الخط المغربي والعربي عامة، وعن نشاطه وإبداعه».(ص278).

وتتخلّل مباحث الكتاب مسارد تضم أزيد من ستمائة اسم للوراقين والناسخين والمزخرفين والمسفرين دون أن يغفل ذكر الوراقات من النساء اللائي تفوقن في هذا الفن في المغرب.

وقد حلّى المؤلف كتابه بلوحات بديعة لأنواع الخطوط المغربية، وللزخرفات الافتتاحية للكتب، وللجداريات الملوّنة الجميلة.

وأخيرا، فإن هذا الكتاب العلمي الدقيق إضافة جديدة للتعريف بالوراقة المغربية والتأريخ لها عبر العصور، في أسلوب مشرق، وصياغة رائقة.

سلا - نجاة المريني

العهد الأسنى...

للشاعرة أمينة المريني

رايات عيدك في الأعالي تخفق ... فالبدر يشدو والنجوم تصفق
وإذا العوالم تنتشي محبورة ... وإذا الكواكب تستنير فتشرق
وإذا البطاح فخورة مختالة ... لبست سناك وكل ذكر يعبق
ملك أمد العالمين بنوره ... وبرأيه تسخو الحياة وتغدق
إن الفصاحة قد حبتك كنوزها ... دررا من الكلم البليغة تعلق
أفحمت قس الأولين ببلاغة ... وبذذت سحبانا فعز المنطق
وجمعت أسرار الحصافة والحجى ... فالسر دون المعجزين يغلق
لقمان أقبل، يا حكيم، مبايعا ... يعشيه نور عبقري يبرق
فلأنت هاد حين يدجو مسلك ... قبس إلهي يضيء ويشرق
حليت هام الشعب تاج مكارم ... يا قوتة فعل سني يألق
وسمكت في العليا صروح منازل ... حكت النجوم الزهر بل لا تلحق
فاصنع من القمرين مدرج عزنا ... ومن الثريا كل مجد يعشق
يا من له الفن الرفيع يحيله ... جنات نعمى سابغات تورق
فأعظم بخير ذللت أثماره ... وبكوثر طام يمن ويدفق!
هو عهدك الأسنى المعمم فضله ... في كل يوم بابتهاج يطرق
هذي رياض العلم أضحت جنة ... تربو وتزهر من جداك وترزق

ولك السدود الناشرات أطايبا ... أملا وخيرا واخضرارا يأنق
هذي المسيرة قد بدت أعلامها ... ببشائر اليمن المؤمل تخفق
والشعب قد أضحى فؤادا واحدا ... لفلول ظلم واعتداء يمحق
والصوت يعلو في الفضاء مجلجلا ... «الله أكبر» للخصوم تمزق
وتعانق الإخوان بعد قطيعة ... وتأجج الحب العميق المشرق
وتحررت صحراؤنا من غلها ... ولها إلى الوطن الحبيب تشوق
ما زلت تبدي كل يوم آية ... غشيت لها الأبصار وهي تحدق
أنت الذي يحمي العقيدة والحمى ... والسلم أنت بيانه المتدفق
ولكم رفعت عن العروبة وزرها ... وجلوت عنها كل خطب يطرق
بإرادة حسنية وثابة ... قد زانها رأي أجل موفق
روضت، ياحسن الفعال، دواهيا ... وفتحت للآمال ما يستغلق
ولقد رميت إلى الشدائد أسهما ... فأصبت إذ فشل الدهاة وأخفقوا
ووهبت من غر الفضائل لبها ... والفضل منك على الأنام يفرق
هذي النفوس على العهود مقيمة ... وبعرشك الأسنى الأثيل تعلق
قسما بمن فطر الحياة وصانها ... إن الولاء لكم تليد مطلق

فاس ـ أمينة المريني

فهرس العدد 291
من مجلة دعوة الحق
الخاص بمناسبة عيد الشباب المجيد

مقالات ودراسات وقصائد
بمناسبة عيد الشباب المجيد

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

صورة غلاف العدد
من انجاز

"إن على الشباب مسؤوليات متنوعة تعظم تارة وتصغر أخرى، وقد تفرض عليه الظروف أن يتحمل كبيرها وصغيرها في آن واحد، ويعمل في ميادينها جميعا، فكما أن الشباب مطالب بالعمل لمصلحة وطنه الكبير، وتحقيق الأهداف القومية الكبرى، يطالب بالعمل لخير مدينته وقريته، لتحقيق الأهداف الصغيرة والقريبة، إذ من مجموع الأعمال المحلية والإقليمية يتكون البناء الكبير، ويتحقق الانسجام في الأمة، وتقل الفروق أو تختفي بالمرة."

من خطاب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني
نصره الله وأيده
الذي ألقاه يوم الاثنين 6 صفر 1384هـ
موافق 9 يوليوز 1964م بمدينة القنيطرة
بمناسبة الذكرى الثالثة والثلاثين لميلاده السعيد